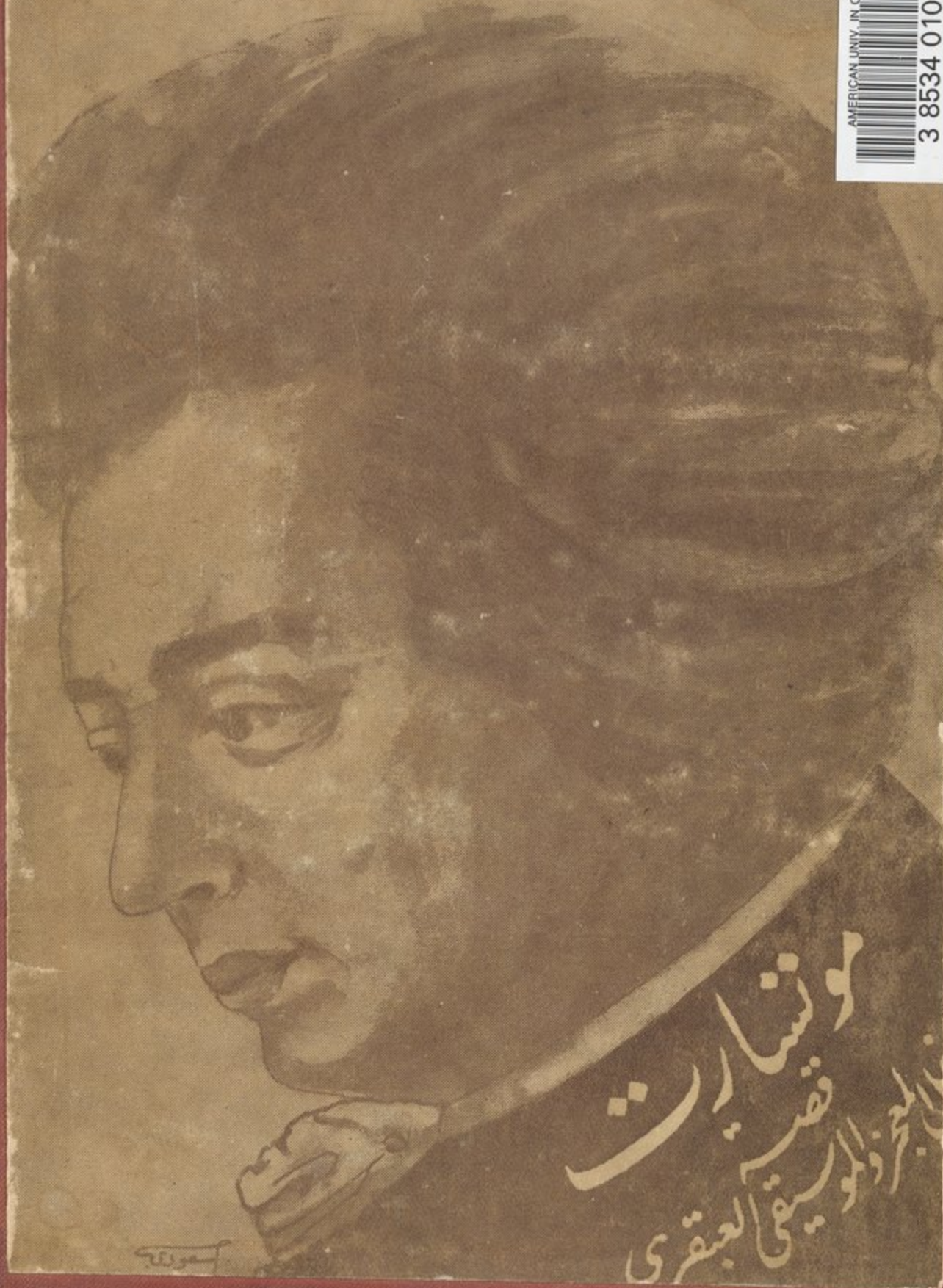


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01078 7145



موتشارت
قصيدة
للمرحوم الموسيقار العبقري



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة

Library

The American University
at Cairo



Happy is the man that
findeth wisdom and
the man that getteth
understanding .+ .+ .+

PROVERBS 3-13

Ex libris datus
in memoriam
Polk McKinney
Pittsburgh, Pennsylvania



04-B 1913 Put

ML
410
M59
H43
1939

al-Hifnī, Mahmūd Ahmād .
Mutsārt .

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
CAIRO

موتسارت

قصة الطفل المعجز والموسيقى العبقري

تأليف

دكتور محمود أحمد الحفني

الطبعة الأولى

١٩٣٩

حقوق الطبع محفوظة للمجلة الموسيقية

oclc
60507199

B13107690
14885037



927
M85H

9CV
Z.J.5

23532



فولفجانج اماديوس موتسارت

في الخامسة والعشرين من عمره

OCLC
60507199

B13107690
14885037

927
M85H

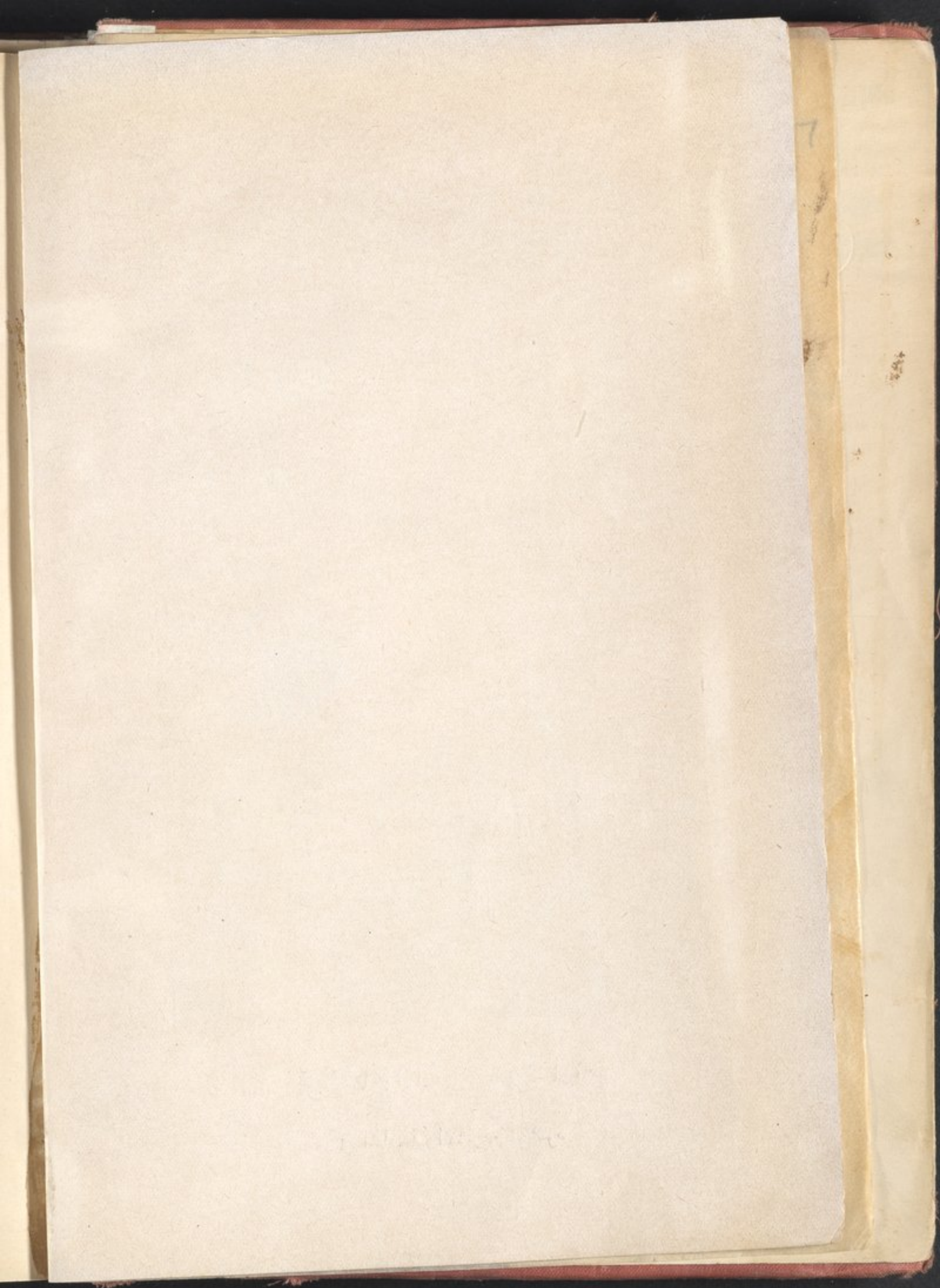
9CV
2J2

23532



فولفجانج اماديوس موتسارت

في الخامسة والعشرين من عمره



فهرس الكتاب

صفحة	
٥	مقدمة
٩	طفل المعجزات
٢١	رحلته إلى فينا
٥٠	رحلته إلى باريس
٥٨	رحلته إلى لندن
٦٢	أثر من مؤلفاته
٦٥	بين أعدائه وحاسديه
٧٣	الرحلة إلى إيطاليا
١٠٣	مجد ومذلة
١١٨	كفاح نفسى
١٣٢	أوبرا خالدة
١٤٢	أوبرا زواج الفيجارو
١٤٩	زيارة مفاجئة
١٥١	قمة الجسد
١٦٨	بين قيصر وملك
١٨١	قداس الحداد
١٨٨	أمل يتحقق بعد قوات الوقت
١٩٣	نواد موتسارت وكلمات فيه

مقدمة

عند بعض الأمم أن « المقدمة صالحة الكتاب » وإذا أردنا أن نعلل هذا التعبير تعليلا منطقيا كان معناه أن المقدمة تشهي القراء وتحملهم على ازدراد ما في الكتاب ، ونحن نعتقد هذا ونؤمن به

والذين تتبعوا سيرة « موتسارت » أو كتبوا فيه ، وما أكثرهم ، لا يغيب عنهم أثر أبويه في تنشئته ، فلقد كان أسلوب أبيه يسيطر على البيت ، وخبرته تتسلط عليه ، وكان يشيع في أنحائه ما وهب الله ذلك الأب من الجهد والصبر والتواضع ولين العريكة والرقّة والدمائة والحدب علي أبنائه — كل هذه الصفات كانت الأساس الذي أديم عليه بناء أسرة « موتسارت »

نشأ « موتسارت » في هذه الأسرة التي اختلط دمها بلبان الشفقة البشرية وتعود عمل الخير والإيحاء الانساني ، فأحس ، أول ما أحس ، في أبيه رائحة كريئة زكية في هواء صاف نقى ، بل لقد تشرب به نعمة حلوة سرت في حنايا أضلاعه

هذا التعاطف بين الأب والابن كان أكبر العوامل في حدوث المعجزة وظهور العبقرية ، فإن الوالد ما كاد يلمس في ولده بوادر النبوغ

حتى سهر عليه ، وعكف على تثقيفه ، وتنمية المواهب الخارقة فيه ، حتى بلغ
الولد القمة واستوى على الغاية

وكم من العقوبات يخبو ضياعها من جهل الوالدين ، وإهمالهما ، أو
عدم تفهم الروح المسيطر على ولدهما ، وقلة تقدير النزعة التي تمتلك نفسه
وحسه ، أو عدم إدراك المعاني السامية التي تجيش بنفس الصبي تدفعه إلى
السمو والكمال .

ولد « موتسارت » عام ١٧٥٦ واعتبطته المنية عام ١٧٩١ فلم يقطع
من سنى الحياة غير خمس وثلاثين سنة قضى بعدها فتيا ودنيا الفن أحوج
ما يكون إليه ، ولكن على الرغم من موته في ميعة الصبا ، وضآلة السنين
التي عاشها ، وعلى الرغم مما صادفه من عوامل البؤس أحيانا والرخاء حيناً
وانقطاع موارد رزقه وقتاً فقد غمر الدنيا بما لا ينقطع ذكره من الألحان ،
مثال الرقة وبدائم الافتنان

لم يترك ناحية من نواحي التلحين الموسيقى إلا طرقها وأبدع فيها
طرائق وفنوناً ، وحسب ألحانه الآلية أن بينها أربعين سنفاً ونى متوجة هي
من أنفاس الزخرف الموسيقي

كان شغفه بملحين الأوبرا ناحية بارزة فيه تسيطر حيناً من الدهر
على مزاجه الموسيقي فقد كان يبتكر الإعجاز في تلحينها دون أن يأبه

وضوعها أو يهتم لمغزاها ، فكان إذا لحن الأوبرا التافهة الموضوع أني
فيها بالسحر المعجز من الآيات الموسيقية ، حتي قال « فاجنر » في ذلك
قوله الخالدة : إن « موتسارت » استطاع أن يرينا في تلحين أوبراته أن
الموسيقي تستطيع أن تقف وحدها على المرسح دون الاستعانة بالفنون
الأخرى

هذا السلسال العذب من الألحان التي تصور ما في النفس من مختلف
العواطف وما يقع بينها من متباين النزعات

هذا السلسيل الفيداق من الألحان التي تروى منازع النفس وتشبع
مطامعها وتسلبها قوة التمرد والغلاظة

هذا السلسيل الراوى من الألحان التي تبعث في النفس الخناث
والرحمة والطمانينة والدعة ، والتي تعجز الألفاظ عن وصفها

هذه الآيات التي أخرجها « موتسارت » كانت تنزل من العاطفة
الانسانية منازل البرء من السقم ، وكانت تنزل بقلوب المفجوعين
المكومين منازل الشفاء من العلة . كانت بردا وسلاما يزيع عن تلك النفوس
المحزونة كدها المقيم ويحيلها نفوسا مستبشرة ضاحكة مطمئنة

على أن « موتسارت » على الموسيقي فضلا أنبل من هذا قدرا وأخلد
منه ذكرا ، ذلك أنه منقذ الفن الألماني ومحرر موسيقاه من الأسر الإيطالي ،

فلقد كان الفن الايطالى إلى أيام « موتسارت » صاحب السلطان والنفوذ في جميع الأوساط الموسيقية ، بل لقد كان الفنانون الايطاليون يحتلون جميع فرق بلاط الأمراء والأشراف ، حتى لقد كان لزاما على الفنان الألماني ، لكي يحرز النجاح ويحصل على الفوز وإذاعة الصيت ، أن يقلد الأسلوب الايطالى وأن يتلمذ على الايطاليين في بلده أو يرحل اليهم في بلادهم ، فغزاهم « موتسارت » وانتصر وحرر فن بلاده فكان حقا غازيا ولكن بغير مهند و سنان

فهو في هذه الناحية مجاهد « سياسى » سلاحه عذب النغم وقوة الابتكار ، حرر بلاده من أسر لا يقل عن أسر الحكم بل هو أدق منه وأعرق لأنه فك عقل النفس والروح

لقد حرر « موتسارت » وطنه من التسلط على حسنه وشعوره فكان الرجل الذى صان لبلاده طابعها الفنى واستقلالها الموسيقى أما أثر « موتسارت » فى الموسيقى ، وما بذله من دمه وأذاب من مهجته فى سبيلها وإشباعها رقة وسموا ، فسيشهد القراء واضحا جليا فى ثنايا هذا الكتاب

دكتور محمود محمد الطننى

طفل المعجزات

في يوم صحو من أيام ربيع عام ١٧٥٩ كان طفل صغير ، لم يتجاوز
الثالثة من عمره ، يلعب في الطابق الثالث من المنزل رقم ٢٢٥ في حارة



« جترايدا » بمدينة « زالتسبورج »
مقلدا بصوته ضربات الطبل ونغمات
النغير . وقد يظن القارئ أن الطفل
كان يسير في أثناء ذلك بخطى منتظمة
مقلداً سير الجنود الذين كان يشاهدهم
كثيراً في الطرقات ، غير أن هذا
الظن لم يكن صائباً ، فإن ذلك الطفل
الصغير ذا الصوت الدقيق لم يقصد
إلى تقليد الجند ، إنما كان قد توسط
الغرفة رافعا ساقيه الصغيرتين يلوح
بهما في الهواء ، وقد وقف على رأسه .
ولم تكن تلك الأصوات التي يعملها بفمه
مقلداً بها الآلات إلا مصاحبة لتلك
الحركات البهلوانية التي يعملها بساقيه .

حارة جترايدا بمدينة زالتسبورج
وقد ظهر فيها إلى اليسار المنزل الذي
ولد فيه فولفجانج موتسارت

في تلك اللحظة دخلت أمه الغرفة ، وما كادت تراه في هذا المنظر
حتى صرخت تناديه :

— فولجناج ، ماذا تفعل ؟ إن الدم يسقط إلى رأسك فيؤذيك .
فضلا عن أنك تتلف لباسك الجديد
— إن ملابسى لن تصاب بأذى ، فلقد كان رأسى هو الذى على
الأرض ، أما لباسى الجديد فقد كان دائما فى الهواء

اكتفت الأم بهذه الملاحظة وهذا الجواب السريع ، وأخذت تنجز
أعمالها فى الغرفة . أما الطفل فقد ترك هذه اللعبة البهلوانية وانصرف إلى
غرفة أخرى مجاورة يبحث عن لعبة جديدة . وسرعان ما أخرج من جيبه
قطعة من الطباشير أخذ يخطط بها الكراسى الجلد الموجودة بتلك الغرفة
حتى ملأ الجلد رسما وتخطيطا ، وهو فى أثناء ذلك كله لم ينقطع لحظة واحدة
عن الغناء والتصفيير

انهمك الطفل فى لعبته حتى نسى نفسه ، ولم يردده إلى الانتباه إلا
صوت الأم وقد أقبلت عليه فزعة غاضبة تنهره :
— ماذا دهاك !! مقاعد والدك التى غطاها بالجلد حديثا تتلفها
بالطباشير هكذا !! انتظر ، لقد عاد والدك الساعة الى البيت ، وسأذهب اليه

وأنبثه خبرك



— أرجو يا أماه ألا تخبري
والدي ، سأمسح الطباشير فتعود
الكراسي سيرتها الأولى .

وبادر الطفل فأمسك بملابسه
وهم بتنظيف المقاعد بها ، لولا أن
سارعت الأم فاعترضته وقد نهته
لاني أنه لا يجوز للإنسان أن يحس
ذنباً بذنب أكبر

والدة فولفجانج موتسارت

هنالك انطلق الطفل إلى أمه ورمى بنفسه في أحضانها وأخذ يتملقها
في صوت رقيق « هل تحبينني يا أماه ؟ »

في تلك الآونة سمعت نغمات البيانو تنبعث من الحجرة المجاورة .
وكانت هذه النغمات تمرينا لتدريب الأصابع لعازف مبتدئ . وبالرغم
من أن هذه الموسيقى كانت مجرد تمرين فقد أحس الطفل عند سماعه إياها
بقوة مغناطيسية تسرى في بدنه كأنما يتمشى في مفاصله تيار كهربائي
وما أسرع ما استحضر أحد المقاعد ووضعته خلف الباب وكان
موصداً ، وصعد فوقه ليستطيع الوصول إلى مقبض الباب فيفتحه ، وما
هي إلا بضع ثوان حتى كان الطفل داخل غرفة البيانو .

وقف « فولفجانج » إلى جانب البيانو يرقب شقيقته « ماريانا » وكانت تكبره بخمس سنوات ، وقد جلست إلى البيانو تتدرب على العزف به ، وإلى جانبها والدها « ليوبولد موتسارت » يرشدها في الدرس ويقودها في التدريب . وكان الوالد مجيدا في العزف بالبيانو كما كان ماهرا في الضرب بآلة الكمان ، ولكن الطفل ما كان يسر بعزف أبيه ، لصعوبة فهمه ، قدر ما كان يسر بسماع هذه التمارين البسيطة التي كانت تؤديها أخته . ولم يكن سروره بها لقدرته على فهمها فحسب ، بل لأنه كان يعتقد في نفسه أنه يستطيع أيضا أن يؤدي مثل هذه التمارين .

وقف الطفل ووضع يديه خاف ظهره ، يراقب حركة أصابع شقيقته مراقبة عنيفة مجعدة ، وقد ارتسمت على وجهه علامات الجذب رغم صغر سنه ، وبرقت عيناه كأنما تتقدان نارا

لم تكن هذه أول مرة يستمع فيها الطفل إلى أخته وهي تتدرب على العزف بالبيانو ، بل كان يحرص دائما على حضور دروسها فيصنئ إليها بكل جوارحه ، ويتابع حركات أصابعها بنظرة متابعة دقيقة .

لم يكتف الطفل اليوم بمجرد السماع ، بل صمم في نفسه أن يقلد شقيقته في العزف . وما كاد ينتهي درسها وتترك مقعدها حتى جلس الطفل إلى البيانو وأخذ يقلد عليه حركات أصابعها تقليدا تاما ، حتى لقد أعاد من

ذاكرته جميع أصوات التمرين الذي أعطاه الوالد لماريانا على البيانو دون
أن يخطيء صوتا واحدا

كاد الوالد ألا يصدق أذنيه ، إذ استكثر الأمر على ولده الذي لم
تتجاوز سنه ثلاث سنوات ، وانسحبت « ماريانا » على أطراف أصابعها
تستدعي والدتها ، وقد وقف ثلاثتهم خلف الطفل الصغير يسمعون في
دهشة وينظرون في عجب إلى تلك الأصابع الصغيرة تنتقل على مفاتيح
البيانو تنقلا صحيحا ، والطفل مشغول عنهم بعزفه ، بل لم يحس وجودهم
إطلاقا إلى أن أقبل الوالد إليه وركع أمامه وضمه إلى صدره وأخذ يغمره
بالقبلات في فمه وجبينه وسائر وجهه وهو يقول :

« فولفجانج ! أيتها الزهرة العجيبة ، ستكون في المستقبل موسيقيا
وأى موسيقى »

كانت ألمانيا حتى ذلك الوقت ، أى في منتصف القرن الثامن عشر
لاتزال تتألف من عدد كبير من المقاطعات الصغيرة ، ولكل منها بلاط
مستقل غاية في البذخ والترف . وكان أشدها بذخا وأكثرها ترفا بلاط
المطران « زيجسموند » أمير مقاطعة « زالتسبورج » وكانت له فرقة
موسيقية خاصة ، ضمن أفرادها « ليوبولد موتسارت » والد طفل المعجزات
ولد « ليوبولد موتسارت » في مدينة « أوجسبورج » بألمانيا ،

وكان عظيم الرغبة في دراسة الحقوق ، ولكنه لفقره وضيق ذات يده
عجز عن المضي في هذه الدراسة وفشلت جميع محاولاته لتحقيق تلك
الرغبة في مسقط رأسه فرحل إلى مدينة « زالتسبورج » وكان بها يومئذ
جامعة ولكنه عجز فيها كذلك عن استمراره في دراسة الحقوق



ليوبولد موزارت

وكان « ليوبولد مونتسارت » مشغولاً بالموسيقى من صغره متعلقاً بها. أجاد العزف بألة الكمان حتى أصبح من أمهر العازفين بها، بل لم يكن له في مقاطعة « زالتسبورج » جميعها كفوا في العزف بتلك الآلة، فلما سمع به المطران « زيجسموند » أمير تلك المقاطعة ضمه إلى بلاطه عضواً في فرقته الموسيقية

ولكن هذا الأمير المتصوف لم يكن، مع عظيم الأسف، ليفرق كثيراً في المعاملة بين أعضاء فرقته الموسيقية وبقية خدمه. ولقد ضاق « ليوبولد » ذرعاً بتلك المعاملة وكان يحس مرارتها في قرارة نفسه حتى لقد فكر كثيراً في السعي في إيجاد عمل له في بلد آخر، إلا أن هذا لم يكن بالأمر الهين ذلك بأن جميع الفرق الموسيقية في بلاط المقامات الألمانية المختلفة كانوا جميعاً من الإيطاليين. وكان من أكبر فضائل المطران « زيجسموند » أن جعل فرقته مقصورة على الفنانين الألمان، كما كان من مزاياه أيضاً رعايته لأرامل من يتوفى من هؤلاء الأعضاء فيقف لهن ما يضمن معاشهن، وهذا ما حمل « ليوبولد » على المكث في بلاط الأمير إذ أنه كان كثير التفكير في مصير أسرته.

وإذ كان مرتب « ليوبولد » في فرقة الأمير زهيدا لا يتجاوز الأربعمائة جولدن في العام، أي نحو الثلاثة جنيهات في الشهر (الجولدن = ١٢٠ شلن) فقد حاول أن يجد له عملاً إضافياً يزيد في رزقه

إلى جانب وظيفته في تلك الفرقة ، فأقبل على إعطاء دروس موسيقية في
العزف بالكان وآلة البيانو كما كان يقوم بتلحين المقطوعات الموسيقية
ولم تنحصر شهرة « ليوبولد » الموسيقية في « زالتسبورج » بل
لقد ذاع اسمه في ألمانيا جميعها ، وعرفه كل راغب في دراسة الكمان
دراسة حقيقية ، ذلك بأنه مؤلف كتاب « دراسة الكمان » وهو خير ما صنف
من نوعه في ذلك الوقت ، حتى لقد ترجم إلى اللغتين الفرنسية والهولندية
رزق « ليوبولد » من زوجه سبعة أطفال لم يعيش منهم غير « ماريانا »
و « فولفجانج » وكان الوالدان قريري العين بهذين الطفلين سعيدين بهما
ولقد جلت حادثة « فولفجانج » في محاولته تقليد عزف شقيقته
بالبانو عن استعدادة الفطري العظيم في الموسيقى ، وكان والده معلما مجيدا
ومربيا محكما لم يخف عليه تعرف هذا الاستعداد ورعايته والسهر على
نمائه ونضوجه .

دأب الوالد على تدريس البيانو لطفله فكان الولد يتقدم تقدما عجيبا
حتى بلغ درجة شقيقته في العزف وحصل كل ما كانت قد سبقته به ، برغم
ما كانت عليه هي الأخرى من الاستعداد العرزي للموسيقى .

لم يكن هناك جديد في الموسيقى يجمله « فولفجانج » حتى كان
يخيل لو والده عندما كان يلقيه درسا جديدا أن للطفل معرفة سابقة به ،
كأنما كان كل شيء كامنا فيه لا يحتاج لإيقاظه إلا إلى إشارة بسيطة .

نعم ، لقد كنت في هذا الطفل جوهرة ثمينة تذكرنا بالمصور
الفرنسي « كلود لورا » الذي أراد أهله أن يكون حائكا ، فلما فشل في تلك
الحرفة أرادوا أن يجعلوا منه بناء ، فلما فشل أرادوه خبازا ففشل كذلك
فشلا ذريعا ، حتى إذا كان في روما ودخل قصر أحد الكرادلة ووقع
بصره على إحدى الصور القيمة فيه أخذ قطعة من القمح ورسم بها تلك
الصورة بدرجة من الجودة هزت الكردينال صاحب القصر وأثارت
إعجابه فأمر بإحراق الطفل تورا بمدرسة التصوير
كان « فولفجانج » أذن موسيقية خارقة للعادة ، وذاكرة موسيقية
قوية أتاحت له أن يعيد عزف أية قطعة تعزف أمامه .

لم يمض غير قليل على « فولفجانج » حتى تجلت عبقريته وأصبحت
لا تقنع بالعزف بل تطلعت إلى التأليف الموسيقي ، لكن والده لم يشأ أن
يجاريه في هذه النزعة الجديدة رغبة في التمهل في تلك الناحية ، ورفض أن
يدرس له علم صوغ الألحان .

إلا أن عبقرية « فولفجانج » أثبت أن تمهل الوالد فأسمعف الطفل
نفسه في هذه السبيل ، ذلك بأنه — وكان في الرابعة من عمره — أخذ
في ذات ليلة قطعة من ورق النوتة وصار يسود صفحتها بالمداد . ولما لم
تكن في قدرة الطفل إذ ذاك معرفة استعمال القلم والمداد فقد كانت نقطه
تساقط على صفحته واحدة بعد الأخرى . وظن الطفل أن خير وسيلة

لتلافي ذلك أن يجرى بكفه على نقط المداد فوق الصفحة ليزيلها ، وبذلك غطيت رؤوس العلامات الموسيقية التي كان قد رسمها بسحابة من المداد حجبتها . ولكن هذا لم يزعج الموسيقار الصغير فقد استمر في عمله يكتب علامة بعد أخرى ، والمداد يتساقط نقطة بعد أخرى ، وهو يكرر عملية المرور بكفه على المداد في الصفحة حتى أصبحت يده سوداء ولكنه كان يكتب ، ويكتب ، ولم يتوقف عن الكتابة إلا لحظات قليلة رفع فيها رأسه ليترنم بالنغمة التي كتبها

وإذا بصوت الوالد يفاجئه على غير انتظار .

— فولفجانج ! ماذا تفعل ؟

— إني ألحن قطعة لليمانو من نوع (الكونسرت)

— لا بد أن يكون ذلك شيئا عجبا ، أرني ماذا فعلت .

قال الوالد ذلك ، وهو يضحك ساخرا ، ولكن الطفل ظل واضعا

يده فوق الورقة وقد حاول الوالد التقاطها منه

— لا .. لا .. لم أنته بعد . لم أتم إلا الجزء الأول فقط

— لا بأس ، دعني أرى ما فعلت

ثم تناول الوالد الورقة ونظر إلى كتابة الطفل غارقة في المداد فقال

لطفله وقد أغرق في الضحك :

— إنها كالبحر الأسود

ولكن سرعان ما ارتسمت على محيا الوالد أمارات الجذ ، إذ لاحظ أن الورقة وإن كانت ملاءى بنقط المداد ورسومات وتخطيطات كاللعب (نكش الفراخ) إلا أنه كان من السهل عليه أن يتعرف فيها العلامات الموسيقية التي قصد إليها الطفل ، وأنه كتب حقيقة قطعة موسيقية ، ولقد بلغ من تأثر الوالد أن ارتعدت يده وهي ممسكة بالورقة ثم قال مخاطباً طفله :

— مرحى ! مرحى ! ولكن قطعتك هذه صعبة الأداء عمليا

— وهي من أجل ذلك قطعة (كونسرت) وينبغي للمرء أن يطيل

التدريب عليها زمنا كبيرا حتى يصبح في استطاعته عزفها .

قال « فولفجانج » ذلك بثبات الواقع من نفسه ، وسرعان ما قصد

إلى البيانو وأخذ يعزف عليه ، بيده القذرة ، مقطوعته التي ألّفها والتي

كان يجرى لحنها في رأسه

كانت أسرة مونسارت تعيش في معزل عن الناس إلا أصدقاءه

قليلين كانوا موضع ثقتهم ، يتزاورون معهم من حين لآخر . وكان الجميع يعجبون

باستعداد « فولفجانج » المعجز وعبقريته الموسيقية الخارقة ، حتى لقد خشوا

أن يكون لهذا النبوغ أسوأ الأثر في جسم الطفل فيكون خطرا على

نمائه ، إذ أظهرت التجارب أن أمثال هؤلاء الأطفال ممن تهيم الطبيعة

استعداداً خارقاً لا يمرون طويلاً . وكان القوم مازالوا يذكرون نابغة
« لبيك » الذي كان وهو في السادسة من عمره غزير المعرفة يجيد عدة
لغات أجنبية ، ولكنه مات في هذه السن

لئن نازعت الوالد « موتسارت » تلك الوسوس أحيانا ، لقد كان
قليل الخوف على طفله ، ذلك بأن « فولفجانج » ظل دائما طفلا في قرارة
نفسه ، وكان كبقية الأطفال جميعا يسر باللعب ، حتى ليغالى فيها ، بما جعل
في حياته توازنا كبيرا بين الطفولة المرحية والنضوج الفني
وكان الوالد يلقي طفله الدعاء كل ليلة قبل نومه مبتهلا إلى الله أن
يرعاه وأن يحفظ له والديه .

أخذ الوالد يرقب عبقرية طفليه ، فقد ظهر لمريانا أيضا نبوغ في
هذا الفن عجيب ، حتى لقد اعتقد الوالد اعتقاداً جازماً أن الله سبحانه
وتعالى قد منَّ عليه بهذا الكنز الثمين ، وحرام عليه أن يدفنه في
« زالتسبورج » الضيقة .

إذن فقد آلى الوالد على نفسه أن يهيئ لطفليه سبيل الشهرة العالمية
وأن يجعل منهما فنانين عظيمين تخلدهما بطون التاريخ . وكان « ليوبولد »
رجلاً عملياً ذا تجارب عجيبة في الحياة مكنته من تحقيق هذا الأمل
على خير طريق

رحلت إلى فينا

في صبيحة اليوم الثالث من شهر أكتوبر عام ١٧٦٢ وقف رهط من المسافرين على شاطئ نهر «الدونا» في مدينة «لنز» ينتظر إقلاع أحد المراكب، وكانت هذه هي الوسيلة الوحيدة للانتقال بين «لنز» و«فينا» وكان بين السفر رجل قوى البدن، في مطلع العقد الرابع من عمره، وقف على الشاطئ وإلى جانبه حقيبة كبيرة وصندوق لليانو. وبالقرب منه طفل في السادسة من عمره، ضحوك الشجر، منشرح الصدر، وفتاة تكبره يعضم سنين، وقد وقفا يراقبان الحشد المجتمع

هؤلاء الأشخاص الثلاثة هم الوالد «موتسارت» وطفلاه، وكانت هذه هي الرحلة الثانية له معهما، أما الرحلة الأولى فكانت إلى مدينة «ميونخ» عاصمة مقاطعة «بافاريا» حيث عزف الطفلان أمام أمير تلك المقاطعة فكانا منه ومن حاشيته موضع الإعجاب الشديد. ثم زارا مطران مدينة «بساو» إجابة لدعوته إليهما، وهم الآن في طريقهم إلى «فينا». إنساب المراكب يسير الهويناء في النهر، ذى الماء الأزرق، وكان يسمع لصوت المجاديف إيقاع منتظم في حركتها أمام وخلف.

وكان الركاب، كما هي العادة، خليطا من مختلف الطبقات ومتباين المهن، فمن بينهم التجار والعلماء ورجال الدين والفلاحون والصناع.

وكان « فولفجانج » يشغل نفسه تارة بالحديث مع هؤلاء المسافرين وتارة ينفرد وحده بإطعام الدجاج والقراريج والحمايم التي أعدها الفلاحون في قفص كبير للذهاب بها إلى السوق ، ولقد أصبح بينه وبين كثير من الركاب مودة وإيناس كأنه عرفهم من زمن بعيد . ولقد تصادق بصفة خاصة مع رجل إيطالي من البندقية كان رحب الصدر لم يمل من الأسئلة العديدة التي كان الطفل يتوجه بها إليه . مستفهما عن كل ما هو حوله من المناظر والظواهر الطبيعية . وكان كثير الإصغاء لهذا الإيطالي ، وقد أخذ يقص عليه تاريخ تلك الجهات من الزمن الغابر منذ الحكم الروماني حتى غزو الأتراك لها .

وكلما امتد الطريق ضاقت النهر ، واقتربت الجبال إلى شاطئيه ، وزادت سرعة التيار .

لقد انحرف النهر وانعطف ، وأخذ المركب يبطيء في سيره ، فقد كانت هذه أخطر نقطة في الطريق حيث تهب فيها رياح شرقية مخيفة مضت ساعتان طويلتان كان المركب يغالب فيها الريح الشديدة ، حتى أحس الركاب الخطر الداهم ، وقد ظهرت على وجوههم علامات الخوف ، وارتسم الذعر على جبين عمال المركب ، وكان بين الركاب قسيسان أخذ يتهلان إلى الله ويوزعان على المسافرين صورا مقدسة ، وكان الوالد مونتسارت متدينا فسرعان مادعا ولديه وطلب إليهما أن

يصليا لله وأن يسألاه الرحمة والسلامة

نجا المركب من موطن الخطر ، وإن كان التيار لا يزال شديدا ،
والماء لا زال يرغى ويزبد . سار المركب في منطقة السلام فتنفس الجميع
لصعداء ، وعادت إلى « فولفجانج » طمأنينته

وبلغ المركب مدينة « إبس » وهي مدينة صغيرة على الشاطئ ،
الآمن للنهر . وكان من المقرر أن يظل فيها مدة من الزمن غير قصيرة
ليأخذ منها حمولة جديدة ، فاتهز الركاب الفرصة ونزلوا إلى المدينة
يتروحون من عناء هذا السفر النهري الشاق ، ولقد توجه أكثرهم إلى
الكنيسة ، ومن بينهم الوالد موتسارت وطفلاه والرجل الإيطالي ، حيث
شكروا الله بنجاتهم وسلامتهم

هنالك في الكنيسة وقد وقف الجميع يتהלون ويصلون انسحب
« فولفجانج » خفية إلى آلة الأرغن ، وكان لم يسبق له العزف بها ، ولكن
مفاتيحها كانت تشبه مفاتيح البيانو تماما ، إذن فلماذا لا يحاول العزف بها .
قصده الطفل إلى الأرغن وعزف ، وسرعان ما تبين اختلاف طريقة العزف
بينها وبين آلة البيانو ، غير أن أصوات الأرغن دوت في الكنيسة حلوة
كأنها السحر ، ورقت النغمات في انسجام نادر عجيب

به من في الكنيسة فأنصتوا في خشوع ، وعرف الوالد موتسارت
أن هذا العازف المحيد لا بد أن يكون ولده « فولفجانج » ، وما كان أشد

دهش الركاب ، حين صعدوا إلى آلة الأرغن يبحثون عن مصدر تلك الأصوات الملائكية ، إذ رأوا الطفل الصغير تجرى أصابعه بمهارة عجيبة فوق مفاتيح تلك الآلة الضخمة وقد اختفى وراءها جسمه الصغير النحيل لم يعبأ « فولفجانج » بمستمعيه ، بل ظل غارقاً في عزفه ، وكان تأليفاً من مخيلته . ولقد انهمرت دموع الفرح على خدي الوالد « موتسارت » لما رأى طفله يعزف بآلة الأرغن لأول مرة عزفاً يخلب الألباب وهو لم يلمس تلك الآلة طوال حياته

وكان أشد المستمعين تأثراً بعزف « فولفجانج » صديقه الإيطالي ، فقد وضع يده فوق رأس الطفل لمسحها وهو يدعو له بقوله :

« أرشدك الله إلى سبيل الخير ، ووجهك إلى طريق الشهرة »

استأنف المركب سيره ، وبعد بضعة أيام انتهت تلك الرحلة النهرية الجميلة ، وبلغ المركب غايته ، وكان ذلك في مساء ٦ من أكتوبر ، وكان على الركاب قبل دخولهم فينا ، مدينة القيصرية ، أن تفحص أمتعتهم بمعرفة موظفي الجمارك . بدأت عملية تفتيش الأمتعة ، وتأكد الوالد « موتسارت » أنه لا بد من انقضاء ساعات طويلة قبل أن ينتهي الموظفون من عملهم وقبل أن يسمح له بالنزول إلى المدينة .

سار « فولفجانج » بين هذا الجمع الحاشد من الناس حتى وصل إلى أحد موظفي الجمارك وأخذ يسأله :

— لماذا تفتح جميع الصناديق والحقائب ؟

— لمعرفة ما تحويه ، وما في داخلها

— لأنكم كثيرو التطلع

أعجب الموظف بهذا الطقل الساذج ، وأخذ يشرح له سر عملية التفتيش . وسرعان ما سأله الطقل

— وإذن فلا بد أنكم ستفتحون ذلك الصندوق الذي ينطوى على

البيان ؟

— طبعاً ، ومن الذي يعزف به ؟

— أنا

— أنت ؟ إنك لا تزيد في الطول على ثلاثة قوالب من الجبن . أتريد

أن تقول إنك تعرف العزف بالبيان ؟ إن أصابعك لتعجز لصنرها عن القيام بهذا العمل

أحسن الموسيقىار الصغير الإهانة في صميم نفسه ، ورغب أن يبرهن للرجل على صدق قوله في الحال . وسأله الموظف على سبيل المداعبة ، فطلب إلى أحد العمال استحضار الصندوق وفتحه ، وسرعان ما جلس فولجانب إلى البيانو وأخذ في عزف قطعة « منيويت » أدهشت جميع المستمعين .

ولقد أخذ الموظف يضرب يداً بأخرى من شدة دهشته كما استولى

العجب على جميع زملائه . كل هذا وفولفجانج يتنقل في عزفه من قطعة
إلى أخرى . حتى تغفل في موسيقى الرقص ، ووقف الحشد نشوان
بمخمر موسيقاه

وحمد الوالد موتسارت لطفه ما قام به ، وإن كان عن غير قصد
إذ كانت نتيجة ذلك أن غنى القوم بهم فكانوا أول من سمح لهم تفتيش
الجمارك بدخول المدينة

وهكذا استقبل « فولفجانج » مدينة فيينا عند دخولها أولى مرة

في بهوط القيصرة (ماريا تريزا)

كان غرض « ليوبولد موتسارت » من الحضور بطفليه إلى فيينا
أن يحجي بها حفلات موسيقية عامة فقد كان يعتقد أنه لو تم له غزو
مدينة القيصرية ، فإن أبواب العالم ستفتح أمامه ولم يجد الوالد صعوبة في
تنفيذ فكرته ، فقد وجد الطريق معبدة ، إذ كانت شهرة طفليه قد
سبقتهم إلى فيينا . كان النبيل الشاب « بالفي » قد سبق له أن سمعهما في
مدينة (نيز) وأعجب بهما أيما إعجاب وكذلك كان الشأن مع غير قليل
من نبلاء تلك المدينة حتى لقد ترامت شهرتهما إلى القيصرية العظيمة
« ماريا تريزا » ورغبت في سماعهما لترى بنفسها هذا الإعجاز الفني
الذي يتحدث الناس عنه . وهكذا عمت شهرة الطفلين البلاط والأوساط

الارستقراطية في فينا

وكان « ليوبولد موتسارت » يحمل معه خطاب توصية للنبيلة « سنزندورف » التي أكرمت وفادته وأحسنست استقبال طفليه ، حتى لقد خصصت لهم جناحا من قصرها أنزلتهم به طوال مدة إقامتهم بفينا وإذ كانت تلك النبيلة من أقدم الأسر عراقة في النبل فقد كانت ضيافتها للوالد موتسارت وطفليه سبيلا للتعرف إلى جميع الأسر النبيلة

الارستقراطية في العاصمة

ولا شك أن غالبية من استمعوا للطفلين لم يكونوا ذوي دراية تامة بالموسيقى ، أو بتفهم فنيهما على الوجه الأكمل إنما كان إعجاب الكثيرين منهم منحصرا في رؤية طفلين في هذه السن لهما تلك المهارة في العزف ، سيما « فولفجانج » فقد كان موضع دهشة الجميع إذ كان في السادسة من عمره ، وكان على صغره يقوم بعزف أصعب المقطوعات بسهولة ممتعة النظر ، كما كان يعزف أشهر مؤلفات أعلام الموسيقى الأمر الذي لم يسمع العالم به من قبل في هذه السن المبكرة.

بلغ مسامع القيصرة « ماريا تريزا » خبر وجود أسرة موتسارت في فينا فأرسلت الأمين الأول « بارون فون شتاوفن » لاستدعاء الوالد وطفليه

وقف ثلاثهم في غرفة الانتظار هنيئة ينتظرون شرف المشول أمام

جلالة القيصرية وإذا بباب يفتح ، لغرفة فسيحة غاية في الأبهة غطيت
جدرانها بالاستائر الحريرية والمرايا ذوات الإطارات الذهبية ، ولقد تدلت
المصابيح الذهبية من السقف المزركش بالنقوش والصور ، وكانت
السجاجيد والرياش وكل شيء في الغرفة ينبع عن مبالغة في العز والثراء ،
حتى أرض الغرفة كانت ناعمة تبرق كالمرآة ينمكس عليها كل شيء .

على كرسي مرتفع يعلوه تاج ذهبي جلست القيصرية « ماريا تريزا »
وبرغم أنها كانت في الخامسة والأربعين من عمرها فقد كانت لا تزال
ذات جمال رائع ، لا تنم نضارة وجهها عن تلك السن الطويلة من حياتها
وكان يحف بها في جلستها أطفالها الأمراء والأميرات ، وبينهم الأميرة
الصغيرة « ماريا أنطوانيت » وكانت في السابعة من عمرها وهي التي
صارت فيما بعد ملكة فرنسا ، وتقد فيها حكم الإعدام في الثورة . وقد
ارتكن على البيانو في الغرفة « فرانس » زوج القيصرية ، وظهرت الحاشية
في نهاية الغرفة في جوع محبشة بملابسهم الرسمية

ولم يكد « الوالد مونتسارت » يدخل وطفلاه الغرفة حتى أقبل
عليه « فرانس » زوج القيصرية وقدمه إليها

— هل أنت هو الطفل الذي مهر في العزف بالبيانو ، والذي يروي

الناس عنه قصصا خيالية معجزة ؟

وجهت القيصرية هذا القول إلى الطفل ، وقد استقبلته بذراعين

معدودتين تجسم فيهما عطف الأمومة

— نعم يا مولاتي جلالة القيصرة ، إني هو

كذلك كان جواب الطفل دون أن يظهر عليه أي أثر للخوف أو
أن تأخذ منه هيئة الموقف الرهيب ، ودون أن يؤخذ بلألاء كل ما يحيط به
أعجبت القيصرة بظرفه قبل أن تسمع عزفه فاستمرت تداعبه
وهي تقول :

— وهل تخاف العزف ، تصور ، أيها الطفل ، إن حشدا كبيرا من
هلية القوم سيسمعونك وهم يجيدون فهم الموسيقى ، ودراستهم بها واسعة
وانهم سينقدون عزفك بالبيانو نقدا قاسيا
فالتفت « فوليةجانج » إلى وراء ملقيا نظرة سريعة على الحاشية
بمينيه الواقدين ، ثم قال وهو يتسم :

— إن منظرهم لا ينيء عن تلك المعرفة في الموسيقى يا مولاتي
فضحكت القيصرة ضحكة عالية رددتها الحاشية ، وإن كانت قد قبلت
دعابة الطفل على مضض .

ومسحت القيصرة على خد الطفل وقالت مخاطبة زوجها فرانس :
— أليس هذا الطفل قطعة من الذهب . إني ليمعيني منه جرأته
واقدامه ، فهو من الشجاعة بحيث لا يخشى شيئا .
ثم أرادت القيصرة أن تسترسل في مداعبتها لقوليةجانج فاستمرت
تقول له :

— وإذا كان القوم هنا لا يفهمون كثيرا في الموسيقى فمن إذن
يستطيع الحكم لك على مهارتك في العزف ، ومن الذي سيدرك حقيقة
قدرتك وإعجازك في البيانو ؟

وما كان أشد عجب الجميع عندما أجاب فولفجانج بصوت مرتفع :
— وهل السيد « فاجنزاييل » ليس هنا إنه هو الذي يفهم الموسيقى
وفي استطاعته الحكم لي أو علي ، فلا بد أن يكون حاضرا

وكان « فاجنزاييل » هذا من أشهر الموسيقاريين وعازفي البيانو
وقد ذاك ، وكان مدرس القيصر . وهو في ذلك الوقت مدرس أطفالها .
ولقد أدهش الحفل طلب الطفل حضور هذه الشخصية الفنية لتكون
حكما على قدرته ومهارته وازداد إعجاب القيصر بالطفل فحققت له رغبته
وأرسلت في طلب الموسيقار « فاجنزاييل »

وهنا خاطب فولفجانج زوج القيصر بقوله :
— هذه شقيقتي « ماريانا » أرجو أن تتفضل بتقديمها لجلالة
القيصر فإنها تجيد العزف مثلي تماما

فسأله القيصر :
— وهل تحب شقيقتك ؟

— أحبها غاية الحب
ثم نظر الي القيصر بسذاجة الطفولة ، وهي تبسم له واستمر يقول :

... لكن أحبك أنت أيضا

— هذا شيء يسرني جدا وما مقدار حبك لي ؟

... أحبك حتى لأرغب في تقييلك

خملته القيصرة على ركبتيها وما أسرع أن طوق الطفل وجهها
بذراعيه الصغيرتين وقبلها

تبرمت الحاشية بهذا الطفل الصغير الفقير الذي أتلّف مراسيم

« البروتوكول » ولم يرع « الإتيكيت » الواجب مراعاة الدقة فيها

أما الوالد متسارت فقد جمد في مكانه كأنما سقط عليه لوح من

الثلج

ولكن القيصرة وأسرتهما كانت على نقيض ذلك فرحة بالطفل ،

مفتبطة به ، تداعبه وتضحك له ، ولقد ردت له القيصرة قبلاته لها

بقبلات مثلها له

وحضر الموسيقى « فاجنزايل » وما كاد يراه زوج القيصرة حتى

قال لفولفجانج .

— هذا هو الموسيقى الذي رغبت في حضوره لسماعك والآن

أرنا ماذا تعرف

ثم أخذ ييده إلى البيانو فجلس الطفل إليه وهو يقول مخاطبا الموسيقى

« فاجنزايل » :

—لاني مسرور لوجودك ، وسأعزف قطعة كونشرت من تأليفك .
ولكن أرجو أن تقف في أثناء العزف إلى جانبي قلب لي صفحات النوتة
بدأ فولفجانج في العزف فكانت الأصابع الصغيرة في حركتها فوق
المفاتيح كأنما تطير ، وانبعثت التريعات والترديدات ، وانسابت النغمات
الحلوة كأنها سحر ، وطاف بسما المكان الحان رقيقة ملائكية كانت تخيل
للسامع أن أوتار البيانو تغني تحت أصابع الطفل التي كانت كأنها مشبعة
بالشعور ، ملائني بالإحساس

انجذبت أنفاس جماعة السامعين ، وإذا قرب من الختام لم يشأ الطفل
أن ينتهي كما ينتهي كل عازف ، بل اختار جملة موسيقية من آخر قطعة
عزفها وصار يؤلف عليها من مخيلته حتى لقد رؤى الدمع ينهمر من خدي
الموسيقيار « فاجنزايل » من شدة التأثير

لقد دمت الدهشة جميع الحاشية ، رجالا ونساء ، وتأثرت القيصرية
تأثرا بالغ الحد ، فقد كانت هي نفسها موسيقية بارعة ، فأدركت بخبراتها
الفنية مدى الفن الذي سمعته وأن عزف فولفجانج الصغير لا ينبغي عن
مهارة نادرة فحسب بل ينبغي في الأهم عن عبقرية موسيقية جبارة ، لقد
ضمت القيصرية الطفل المعجز إلى صدرها وطبعت على جبينه قبلة
تقدير وإعجاب

وكذلك عزفت « ماريانا » عزفا أدهش الحاضرين ، وجعل الطفلين

موضع الإعجاب الشديد ، وإن كانت كفة فولفجانج قد رجحت كفة
شقيقته

وعادت القيصرة إلى مداعبه الطفل فخاطبته قائلة :

— إنك ساحر صغير ، ولها لبراءة فنية كبيرة أن تخرج بعشرة
أصابع فقط كل هذه النغمات . ولكن المهارة المعجزة أن يستطيع المرء
عزف قطعة كاملة بأصبع واحدة

وفي غير تردد عاد الطفل فصعد إلى البيانو وأخذ يعزف بأصبع
واحدة أصعب المقطوعات

وهنا جاء دور زوج القيصرة في مداعبته للطفل فقال له مازحا :

— ليست هذه مهارة كبيرة مادام الإنسان يرى المفاتيح بعينه
إنما عليك أن تتعلم العزف بالبيانو إذا غطيت المفاتيح

هذا أيضا لم يخرج الطفل العبقرى فقد طلب قماشاً رفيعاً غطى به
المفاتيح وعزف بثبات غريب لم يخطئ فيه نوتة واحدة

وهكذا قضى القوم ساعات سعيدة مع الطفلين الماهرين واستدعت
القيصرة الوالد موتسارت وهنأته بطفليته وقد اهتمت بسؤاله عن مستقبلهما
وعما اعتزمه بشأنهما ، ثم أهدت إلى كل من الطفلين خاتماً ثميناً من الماس
وكانت علامة الانصراف أن قالت لهما :

— سنلتقي مرة أخرى

لم ينتفض على ذلك بضعة أيام حتى أقبلت عربية البلاط تقل الأمين
الأول « البارون فون شتاوفن » وقد جاء ينيء الوالد موتسارت أمر
القيصرة في استدعائه وطفليه

كانت وليمة قيصرية كبيرة، وكان ممنوعا على أفراد الشعب، حتى
أكابر مئريه، حضور تلك الولائم، اللهم إلا طائفة ممتازة من الطبقة
الأرستقراطية، ولكن شاءت القيصرة أن تستثني أسرة موتسارت
فأوفدت أمينها الأول لدعوتهم لحضور الوليمة رغبة منها في رؤية الطفلين
ثم قال الأمين الأول مخاطبا الوالد:

— ولأجل أن يحضر طفلك في ثياب تلائم الوليمة قد أرسلت
جلالة القيصرة لك هاتين الحقيتين وبهما ثوبان تهديهما للطفلين. وسيدا
الحفل في تمام الساعة السادسة، وسأعود لاستصحابكم
وإذن فقد انصرف الأمين الأول على أن يعود، وفتح الوالد
الحقيتين وأخرج منهما الملابس وكانت قد عملت أولا خصيصا لطفلي
القيصرة، الأمير ماكسميليان والأميرة اليصابات، وإذا كانا في جسيمهما
يتناسبان مع طفلي موتسارت فقد رأت القيصرة أن تهدي تلك الملابس
اليهما.

ارتدت « ماريانا » ثوبها المسمى، وكان من الحرير الناعم المطرز
بجبايات غاية في الذوق السليم، فظهرت فيه أجمل ما تكون. أما ثياب

فولفجانج فكانت سترة ذات لون وردي وقد رصعت بأزرار من الذهب،
لم يكده فولفجانج يلبسها حتى ظهر كأنه رجل من رجال الحاشية، لهذا
فقد أخذ يلقب « البارون شتاوفن » الأمين الأول في مشيخته وحرركاته
الأرستقراطية وصوته الأنفي ونبراته الصوتية التي تنم عن كبرياء شديد
وقبيل الموعد المحدد حضر البارون « الأصيل » واصطحب أسرة
موتسارت إلى القصر الملكي حيث أدخلهم إلى « الردهة الذهبية »

أى عظمة وأى أبهة احتوتها تلك الردهة ١١ كانت معدة لوليمة
طعام فاخرة، وكانت جميع أدوات الأكل من الفضة الخالصة وقد رسم
عليها التاج القيصري. أما حيث تجلس القيصرية فقد كانت جميع الأدوات
من الذهب وكانت الردهة مضاءة بما لا يحصى من الشموع وقد انعكس
ضوءها فوق تلك الأوعية الفضية والذهبية ونثرت الأزهار في كل مكان
فانتشر لها عبق جميل.

وكان يحيط بالردهة طائفة ممتازة من النبلاء، سيدات ورجالا،
أختيرت ليكون لها شرف حضور هذه الوليمة لرؤية جلالة القيصرية
والحاشية عند تناول الطعام

وبين هؤلاء الثلاث المشاهدين ومناصد الوليمة وقف الحرس
القيصري، على رؤوسهم الخوذات، يحافظون على ممر عريض. ولم
يكن يسلم في كل هذه الردهة الكبيرة صوت مرتفع، إنما كان الجميع

يتكلمون همسا

وجأة أعلن صوت النفير وترعيدات الطبلية حضور جلالة القيصرية
وإذا بباب كبير يفتح ، وقد أقبلت منه « ماريا تريزا » تهادى في مشيتها
القيصرية ، يتبعها زوجها وأطفالهما وبقية الحاشية . وسار الجميع في موكب
نخم وسط هذا المر الذي كان الحرس يحافظ عليه . وحيثما تمر القيصرية
ينحنى الجميع كأنما موجة من الريح أصابت عيدان القمع ، والسعيد من
تحتضه جلالة القيصرية بإيماءة أو ابتسامة تحية له ، ولقد حظت أسرة
موتسارت بمثل هذه التحية القيصرية ولقت نظر القيصرية بصفة خاصة
ملابس فولفجانج التي ارتداها

استمر عرض هذا الموكب قرابة نصف ساعة آذن بعدها صوت
النفير وترعيدات الطبلية بالانتهاء ، وأخذت القيصرية وزوجها وأطفالهما
أماكنهم على المائدة القيصرية ، كما امتلأت بقية المقاعد برجال الحاشية
والأمراء والوزراء وقد جلسوا بعضهم يتقدم بعض درجات وفاق ما يقضى
به نظام « البروتوكول »

ولقد شغلت الفرقة الموسيقية القيصرية الأذان في أثناء الطعام ،
وكانت هذه أول مرة سمع فيها « فولفجانج » فرقة موسيقية كبيرة
كهذه ، لذلك فقد حبس عليه عزفها جميع حواسه ، ولم يعد ينتبه إلى
ما حوله إطلاقاً

انتهت الوليمة ، ووقفت القيصرة وأسرتها ، وصوت النفير وضربت
الطبللة إيدانا بانتهاء الحفل ، وعادت القيصرة تتبعها أسرتها وحاشيتها ، في
موكب نخم ، وقد أخذت تحي بعض مدعويها من جمهرة النبلاء
المشاهدين ، على نحو ما فعلت عند قدومها .

ولم يمض على دخول القيصرة في مقصورتها الخاصة فترة وجيزة حتى
أرسلت في طاب أسرة مونتسارت إليها وهنا في هذا الجو العائلي عزف
الطفلان الماهران أمام القيصرة وأطفالها الأمراء والأميرات الصغار
وكانا دائما من القيصرة موضع عطف ورعاية . وما كادا ينتهيان من
العزف حتى أخذ أطفال القيصرة يتسامرون معهما في غير كلفة فقادت
أميرتان منهما فولفجانج الصغير يريانه صالات القصر

لقد خيل لفولفجانج أنه يسير في عالم آخر ، فلقد كان كل شيء
جديد في نظره ، رياش ثمينه وتحف قيمة في كل مكان جعلت الطفل
المسكين في دهشة صرفته عن الانتباه الى شدة نعومه خشب الأرضية
فازاقت قدماه وجسأة سقط على وجهه . وإذا بالأميرة « اليصابات »
تفرق في الضحك منه وقد وضعت منديلها الصغير المطرز أمامهما ، بينما
بادرت شقيقتها الأميرة « ماريا انطوانيت » فأسغفت الصغير وعاونته
حتى نهض على قدميه

فنظر فولفجانج إلى تلك الأميرة الشقراء نظرة ملؤها الشكر وعرفان

الجميل وخاطبها قائلا :

— إنك طيبة القلب وإنني من أجل ذلك سأخذك زوجا لي
ولم تر الأميرة الصغيرة في هذا القول شيئا غير اعتيادي فأجابته
بسذاجة الطفولة بقولها :

— أنتظر . سأسأل جلالته والدتي

وإذن فقد أقبلت معها إلى القيصرة ، وكانت مشغولة في حديث مع
الوالد موتسارت الذي جد الدم في عروقه وتمنى المسكين لو ابتاعه الأرض
عند ما سمع أن طفله طلب يد الأميرة

ولكن القيصرة ضحكت وسألت الطفل :

— لماذا ترغب في زواج « ماريا انطوانيت » ؟

— ذلك دليل شكرى لها وعرفانى بجميلها ، فلقد أحسنت إلى

فما كنتنى على القيام من سقطتى بينما شقيقتها لم تعن بأمرى

فمسحت القيصرة على خد الطفل وهي تقول له :

— هذا حسن منك ، ينبغي أن يعترف المرء دائما بالجميل ، وسنفكر

في الأمر

لقد دعى الوالد موتسارت وطفليه إلى القصر بعد ذلك غير مرة ،

وكان من نتيجة ذلك أن حذا الأشراف والأمراء حذو القيصرة فأخذوا

في دعوتهم إلى قصورهم الواحد بعد الآخر . ولقد كان الطفلان وبخاصة
قونفجانج موضع الإعجاب والدهشة أينما ذهبوا . ولقد أغدقت علي
الطفل العطايا وقدمت إليه كثير من الهدايا الثمينة حتى لقد نظم فيه
بعضهم الشعر

ولكن الأيام وإن صفت تأبى أن يدوم صفاؤها ، والدهر إن بسم
يأبى إلا أن يكون عبوسا . فلقد شاء القدر أن لا تنتهى تلك الرحلة
الجميلة إلا بما يكثر صفو جمالها . فقد أصيب « قونفجانج » بالحصبة .
ولئن كان قد شفى منها سريعا بفضل عناية الطبيب الخاص للبيئة
« سنزendorف » وتم شفاؤه منها تماما إلا أن هذا المرض كان سببا في
وقف الدعوات . إذ خاف الجميع العدوى

لهذا لم ير الوالد موتسارت بدا من العودة إلى وطنه ففعل راجعا مع
طفليه إلى زالتسبورج في أوائل يناير سنة ١٧٩٣
ولقد استغرقت هذه الرحلة ثلاثة شهور لا يمكن للوالد موتسارت
ولا لطفليه أن يذسوها . وكانت سببا في شهرة « طفل زالتسبورج المعجز »
حتى لقد ذاعت تلك الشهرة فيما بعد الحدود الألمانية

عزفه بالمكان لأول مرة

كان لشهور الشتاء التي قضاها فولفجانج موتسارت في فيينا أعمق الأثر في نفسه فأصبح قليل الميل إلى اللعب مع لدانه من الأطفال، زاهد في ألعاب الطفولة، واستولت الموسيقى على مشاعره واستحوذت عليه وصارت شغله وأصبح شغلها، ولقد بلغ الأمر في كثير من الأحيان أن كان يحال بينه وبين البيانو بالقوه ليكون لعزفه به حد ونهاية، وأصبح يشغوا بالموسيقى إلى درجة تفوق حد الوصف لازمته طوال حياته وفي مساء يوم من أيام الربيع، وكان في شهر مايو، والطفل لا يزال في السادسة من عمره، أضاف الوالد موتسارت في منزله الموسيقى «شاختر» وهو أحد زملائه في فرقة الأمير المطران، وكان من أخلص أصدقاء أسرة موتسارت، وأعز الناس بها مظهرا ونفرا. كان يحب فولفجانج حبا كثيرا خلق بينهما ألفة ومودة لم تعبأ بفوارق السن والتكوين. وإن التاريخ لمدين لهذا الأستاذ بالشىء الكثير مما رواه عن طفولة صديقه الصغير، ولولاه لظل كثير من نواحي تلك الطفولة مجهولا في بطون الغيب

أقبل على المنزل ضيف ثان هو الشاب «وتسل» وكان عازفا بالمكان يتلقى علي الوالد موتسارت دروسه في العزف بها، وفي التأليف الموسيقي

وصوغ الألحان ، منذ زمن بعيد . وكان هذا الشاب يتأبط صندوق
كمانه ، ويمسك في يده مجموعة من ورق النوتة الموسيقية احتوت على
ست ثلاثيات من تأليفه لاكتين من آلات الكمان وآلة القيولنسل وكان
قد تحدد ذلك المساء لعزف تلك الثلاثيات لأول مرة

أخذ كل من الموسيقيين الثلاثة : الضيفين وصاحب الدار ، يمسد
نفسه للعزف ، وكان على « وتسل » أن يعزف لحن الكمان الأول وأن
يقوم « شاختر » بعزف لحن الكمان الثاني . أما الوالد موتسارت فيقوم
بعزف لحن القيولنسل وقد استبدل بآلة « القيولا » تلك الآلة لعدم
توفر الأولى لديه . وما شرعوا في تسوية أوتار الآلة التي سيعزفون
بها حتى فوجئوا بالطفل « فولفجانج » وقد أمسك بيده آلة كمان صغيرة
كانت قد أهديت إليه في أثناء رحلته بفينا ، وقد بدأ هو الآخر يسوى
أوتار تلك الآلة فدهش والده وسأله :

— ماذا تريد أن تفعل بالكمان ؟

— أريد أن أعزف بها لحن الكمان الثاني

فضحك منه والده وقال :

— إنك طفل متبجح ، أنت لا تستطيع العزف بالكمان إطلاقاً

— بلى يا والدى ، إنى أستطيع

قال الطفل ذلك بثبات القادر ، وإيمان الواثق ، وقد ظهر في عينيه

بريق الفرح

- لا بد أن تكون قد تعلمت هذا في الحلم أذن أرجوك يا فولفجانج
ألا تعطل أعمالنا . ولا مانع عندي من بقائك معنا في الغرفة إذا كنت

ترغب السماع

- أرجوك يا والدي العزيز أن تسمح لي بالاشتراك معكم في عزف

ثلاثي السيد « وتسل »

- أرجوك ألا تثير غضبي أيها الغلام ، فأنت وإن شهد لك العالم
بالمهارة الكبيرة في العزف بالبيانو ، تجهل كل الجهل العزف بالكممان وإنك
نم تدرسها مطلقا ، ولا بد لمعرفتها أن تتعلم العزف بها

- إن عزف ألحان الكممان الثاني يا والدي لا يحتاج إلى تعليم خاص

قال الولد ذلك في صوت المصّر ، فعيل صبر الوالد وصرخ فيه غاضبا

- تلك فحة كبرى يا فولفجانج أن تقول ذلك في حضرة السيد

« شاختر » وأنت تعلم أنه سيقوم بعزف ألحان الكممان الثاني

وإذا كان الوالد يتميز غيظا ، كان « شاختر » يتسم لقول فولفجانج

ذلك بأنه شديد الحب له ، كثير التعلق به ، وقد عز عليه أن يرى الدمع

يتفرق في عينيه ، إذ لم يتعود الطفل تلك القسوة من والده فقال :

- سنحقق لغلامنا أمنيته ، تعال إلى جانبي ، وحاول ، أن تعزف معي

علي أن يكون عزفك خافتا ضعيفا

وسرعان ما مسح فولفجانج الدمع عن عينيه ووقف إلى جانب صديقه
وقد وضع مكانه على كتفه وضعا فنيا ، وأمسك بالقوس في يده وتبها للعزف
هزّ الوالد رأسه عجباً ، ولكنه أعطى الأمر بالبدء في العزف

لم يكن هذا الثلاثي من السهولة بمكان ، ولقد أعجب « شاختر »
باللحن حتى انسجم فيه واستولى عليه فنسى العازف الصغير الواقف إلى
جانبه . ولكنه ، رويدا ، رويدا ، أحس وجوده فأضعف هو من عزفه
قليلا قليلا ليتبين عزف الغلام . لقد كان عزفه نقياً وأصواته صافية دقيقة
حتى بلغ من دهشة « شاختر » وعجبه أن توقف تماماً عن العزف ، تاركاً
الغلام وحده يقوم به ، وعندئذ بدأ الوالد يستمع إلى عزف ولده ، حتى
نهاية القطعة

فاض قلب الوالد فرحاً ، وأحس في نفسه كأنما يريد أن يركم أمام
ولده مستغفراً عما فرط منه من ضعف الثقة به واستهائته بمقدرته الفنية
ولكنه عوض ذلك بأن ضمه إلى صدره وأشبعه قبلات الحنو ، والاعجاب
وأخذ « شاختر » يسائل فولفجانج :

— متى تعلمت ذلك أيها الغلام السريع سرعة البرق ؟

— عند ما يكون والدي خارج البيت

قال الطفل ذلك وهو يتسم ابتسامة الماكر حتى قال له صديقه :

— تقديراً لك يا « فولفجانج » سأنزل لك الليلة عن عزف الكيماز

الثاني ، وعليك أن تقوم وحدك بعزف ألحانه في الخمس الثلاثيات
الأخرى الباقية

- كلا إنني لا أريد أن أعزف لحن الكمان الثاني ، إنما أريد أن
أعزف لحن الكمان الأول ، إذ أجد لحن الكمان الثاني سهلا بالنسبة لي
عجب الجميع لقول الطفل ولكنه كان جادا فيه ، فلم يسمعهم في هذه
المرّة إلا التسليم له بما طلب حتى قال له « وتسل » مؤلف هذه القطع:
- تعال يا « فولفجانج » إلى جانبي ، وانظر معي في صفحة النوتة
التي سأعزف منها . وهلم نبتدىء العزف

انسابت النعمات من جديد في الحجرة ، وقام الطفل بعزف ألحان
الكمان الأول . وإذا كان عزف هذه الألحان يتطلب ماهرة متقدما في تلك
الدراسة يكون في مكنته تأدية ما يصادفه من مواضع صعبة في الأداء
فقد ظهر عجز الطفل فيها وأخطأ بعض مواضع العفك المناسبة ولكنه برغم
ذلك لم يضطرب مرة واحدة بل استمر في العزف معهم حتى النهاية
ومنذ ذلك التاريخ ابتداء الطفل يتلقى على والده دراسة منتظمة في
العزف بآلة الكمان سرعان ما مهر فيها مهارة عجيبة خارقة

ولو كان الأمر يسده لتعلم العزف بجميع الآلات فقد كان يحبها
جميعا إلا آلة النفير التي كان شديد الكراهة لسماعها ورؤيتها ، وإن كانت
هذه الكراهة قد استحالَت فيما بعد إلى محبة ، فكان أول من وفق

لاستخدامها في الفرق الموسيقية توفيقاً حمل الموسيقار الخالد « هايدن »
المسن أن يقول :

« لقد تعلمت عن موتسارت كيف أستعمل النغير في الموضوع الصحيح »

تقدم فولفجانج في دراسته الموسيقية برعاية أبيه تقدماً سريع الخطى
بعيد المدى ونضجت عبقريته وشأت قدرته ما كان عليه في فينا قبل بضع
شهور . كذلك قطعت أخته (ماريانا) مرحلة بعيدة في هذا الفن وتجلى
نبوغها بما حمل الوالد على التفكير في أن يكون لطفليه شهرة عالمية . ورمى
ببصره إلى أبعد من البلاد الألمانية وشاء السفر بها إلى خارجها واعتزم
الرحلة إلى البلاد الفرنسية والانجليزية وبخاصة باريس ولندن

في الطريق إلى باريس

وإذ قد اعتزم الوالد السفر بطفليه إلى تلك الرحلة الطويلة فقد رأى
أن يزور في طريقه بلاط أمراء المقاطعات الألمانية لا مكان استعانت به بما
يكسبه من المال على سد نفقات هذا السفر البعيد

وإذن فقد أعد الوالد للعدة للسفر بعد أن زود نفسه بالكثير من
خطابات التوصية التي حصل عليها من الأوساط الأرستقراطية بفينا . وبعد
أن حصل على اجازة طويلة من المطران أمير زالتسبورج بدأ رحلته في

يوم ٩ يونية سنة ١٧٦٣ بصحبة طفله الصغير، وكان في السابعة من عمره،
وشقيقته ماريانا

كانت مدينة « ميونخ » قبلتهم الأولى في تلك الرحلة فوصلوا إليها
بعد سفر استغرق أربعة أيام، ومهد لهم أحد النبلاء الدخول الى بلاط أمير
بافاريا حيث عزف الطفلان وكانا موضع الإعجاب والتقدير
استأنفت أسرة موتسارت الرحيل إلى مدينة « أوجسبورج »
مسقط رأس الوالد موتسارت فكانت موضع الحفاوة ونال الطفلان ما
يستحقانه من الإكرام . وإننا لنثبت هنا تعليق إحدى الصحف وقتئذ
عن تلك الزيارة قالت :

« غادرنا أول أمس المايسترو ليوبولد موتسارت وطفلاه المميزان
قاصدين مدينة « أستوتجارت » حيث يزورون بلاطها في طريقهم إلى
فرنسا وانجلترا . ولقد شاء الوالد ألا يحرم مواطنيه - سكان مسقط
رأسه - من التمتع بسماع طفليه الموهوبين المحبوبين الذين من الله عليهما
باستعداد فني خارق للعادة، واللذين عرف والدهما كيف يسهر على رعايتهما
وتوجيههما توجيهاً فنياً صحيحاً . فهو والد الجدير بصفة الأبوة حقاً فقد
استطاع أن يجعل من ابنته وهي في الثانية عشرة من عمرها فنانة بلغت
درجة بعيدة التصديق ، ومن ابنه وهو في السابعة من عمره معجزة العصر
الحاضر والمصور للماضية »

غير أن أسرة موتسارت لم ترحل إلى مدينة أستوتجارت كما ذكرت

الصحيفة، بل سافرت الى مدينة مجاورة لها هي « لودفيغسبورج » حيث
كان أمير مقاطعة « ورتنبورج » في مصيفه

وإذ كان رئيس الفرقة الموسيقية لهذا الأمير ويدعى « يومبلى »
فنانا إيطاليا، لا يعترف إلا بالفنانين من أبناء وطنه، ويدفع جهد طاقته
الفنانين الألمان عن بلاط أميره حتى لا يكون لهم نصيب في الظهور فيه
إطلاقا فقد نجح في عرقلة ظهور الطفلين موتسارت وعدم تمكينهما من
العزف في البلاط

ورحلت أسرة موتسارت إلى مدينة « هيدلبرج » حيث عزف
فولفجانج بال آلة الأرغن في الكنيسة المقدسة ولقد بلغ من إعجازه في العزف
وإعجاب الناس به، أن نقشوا على تلك الآلة كلمتي « للذكرى الخالدة »
كذلك كان نجاح الطفلين عظيمًا، واستقبلاهما رائعا باهرا في مدن
« مانهايم » و « كوبلنز » و « بون » و « آخن » (إكس لا شابل)
فقد كانوا في هذه المدن جميعا موضع الحفاوة البالغة والإكرام الفائق،
وغمرتهم الهدايا الثمينة التي قدمت إلي الطفلين، حتى لقد كتب الوالد
موتسارت إلى زوجه في « زالتسبورج » يقول :

« إننا نستطيع أن نفتتح من هذه الهدايا متجرا عاما »

أما من الناحية المالية فقد كسبت أسرة موتسارت من هذه الحفلات
الموسيقية التي أقامتها في الطريق مالا وافرا بقى منه قبل بلوغها باريس

مبلغ ١٠٨٠ جولدن (ما يقرب من المائة جنيه) بعد جميع مصاريف
الطريق ونفقاته

ولقد كان الوالد متسارت رجلا محنكا ذا خبرة بالحياة فإنه كما
عرف أن يفيد طفليه من هذه الخبرة فقد عرف كذلك كيف يجتذب
الجاهلير إلى مواهب هذين الطفلين ، وكيف يجعل من برامج حفلاتهما ما
يترك الجميع في دهشة وإعجاب ، سواء في ذلك طائفة المجيدين فهم هذا
الفن أو غيرهم ممن تسحرهم مظاهر المهارة في العزف مع صغر السن
وإننا لنسوق فيما يلي مثلا مما نشرته صحيفة بمدينة فرانكفورت في
٣٠ أغسطس سنة ١٧٦٣ حيث قالت :

« إن الاعجاب الشامل الذي لم يسبق أن رأى الناس مثله ، ولا
سمعوا به من مهارة طفلي زالتسبورج الموهوبين قد دعا إلى استعادة
البرناميج جميعه ثلاث مرات بدلا من مرة واحدة ، وسبب ذلك الاعجاب
العام هو ما تصادفه طائفة المثقفين في الموسيقى الذين يقدرون فن هذين
الطفلين مما يشبع همهم الفني من الموسيقى الساحرة الجيدة . واليوم
ستكون آخر حفلة تقيمها عندنا تلك الأسرة في تمام الساعة السادسة ،
تحييها الفتاة الصغيرة التي لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها وشقيقها الغلام
الذي لم يتجاوز السابعة من عمره ، وستكون الحفلة غير مقصورة على
العزف بالبيانو ، لمقطوعات خالدة قيمة لأعلام الموسيقيين ، وإنما سيتوم

الغلام كذلك يعزف قطعة « كونسرت » بآلة الكمان ، كما أنه سيعزف بالبيانو وقد غطيت مفاتيحه بقطعة من القماش تحجب رؤيتها فيعزف عليها بإجادة تامة كأنها غير محجوبة ، وفي استطاعته أن يقلد على البيانو كل صوت يطلب إليه تقليده كأصوات الأجراس ، والزجاج ، والساعات وغير ذلك . وسيعزف بآلة الأرغن التي تختلف في عزفها عن البيانو اختلافا بينا ، مقطوعات من مخيلته وإنشائه .

ولقد يتضح من هذا القول الطريف كيف كان الوالد مونتسارت يفهم كيفية الإعلان عن طفليه وعن مهارتهما حتى لقد استغل الدعاية التي دأب بها فرانس زوج القيصرة في فينا الغلام « فولفجانج » ، فبعد أن كانت مجرد دعاية ، جعلها الوالد في إعلاناته إعجازا فنيا . وإذا كان الوالد في حاجة إلى كسب المال ، وكانت طائفة المثقفين في الموسيقى قليلة غير كافية لملء مقاعد المكان فقد اضطر إلى مثل هذا العرض البهلواني لا مكان اجتذاب الجماهير

رحلت إلى باريس

في ١٨ من نوفمبر عام ١٧٦٣ وصلت أسرة موتسارت إلى العاصمة الفرنسية . وكانت باريس وقتئذ عروس أوروبا تشكو جميع حواضرها أهية ونخامة ، رغم ما يتخلل أحياءها من الطرقات الضيقة الملتوية غير الممهدة . التي يعوزها الشيء الكثير من النظافة ، وكانت تتوسط شوارعها قنوات لتصريف المياه ، ولم يكن على جوانب تلك الشوارع أرصفة كما هو الحال الآن ، فكانت العربات في سيرها تكاد تلمس جدران المنازل لدرجة يتعرض معها المارة لأخطارها

وكان الوالد موتسارت يحمل معه توصية حارة من النبيلة « إركو » نزال التسبورج إلى زوج ابنتها النبيل « أليك » سفير بافاريا في فرنسا ، فأحسن استقبال أسرة موتسارت في بيته وأنزلهم فيه ضيوفا عليه وكان أول ما قام به الوالد موتسارت أن عرف نفسه إلى طائفة كبيرة من النبلاء كانت يحمل إليهم خطابات توصية ، أمثال النبيل « كوبنزل » والبرنس « كوتيه » والأميرة « إيكوبون » والمركيزة « دورفور » وغيرهم

وكان فرح الجميع بالطفلين الفنانين عظيمًا ، ولذا فاتهم بالاستماع إليهما والتمتع بموسيقاهما بالغًا . إلا أن الأمر بالأسف لم يتعد هذا

الفرح ، وذلك الاستمتاع ، ولم يستطع أحد من أولئك جميعاً أن يسهف
الوالد « موتسارت » فيشق له طريقاً للدخول في البلاط الفرنسي
ولقد كدح الوالد فكره يتلمس معرفة أسباب هذا الإغضاء من
ناحية البلاط حتى لقد خاف أن تضيق عليه ثمرة تلك الرحلة الطويلة إلى
مدينة السين (باريس) التي هلق عليها آمالاً كباراً وبني عليها قصورا
من الذهب

والواقع أنه لم يكن سبب لذلك الحرمان إلا بساطة الوالد وعدم
معرفة أسرار البلاط ، ذلك بأن الكلمة العليا في بلاط الملك « لويس
الخامس عشر » كانت للمركيزة « بومبادور » صاحبة السلطة المطلقة
فيه حتى لتعلو كلمتها كلمة الملكة نفسها

وكان كل أمر يصل إلى البلاط عن غير طريقها مقضياً عليه بالفشل
المحقق والسقوط المهتم

وكان بين كتب التوصية التي يحملها معه الوالد موتسارت كتاب
من زوجة تاجر من مدينة (فرنكفورت) بألمانيا إلى البارون « جريم »
ولكن الوالد لم يعلق على هذه التوصية أهمية تذكر ذلك بأن البارون لم
يكن في نظره إلا شخصية هينة وهو فوق ذلك ألماني الجنس ، وماذا
يمكن أن تمهد له مثل هذه الشخصية من أمور عجز عن النجاح فيها كل
من اتصل بهم من النبلاء والأمراء وغيرهم من أشراف الفرنسيين ذوي

الأقدار العظيمة

غير أن الوالد موتسارت كان جد مخطيء في اعتقاده ، فإن البارون « جريم » كان الشخصية التي في استطاعتها إفادته فهو وإن كان ألمانيا فقد استوطن باريس منذ اثني عشر عاما ، وكان يعد من أعلام رجال الطبقة الأولى من الناحية الاجتماعية ، ومن أظهر أعضاء هيئة كبار العلماء الذين أختيروا لإخراج دائرة معارف عامة تحصر فيها جميع علوم البشر. وكانت هذه الهيئة متمتعة في كل فرنسا باحترام خاص ونفوذ روحي شديد ، حتى كانت تخشاهما أعلى طبقة في البلاط ، وكثيرا ما وجه هؤلاء العلماء في كتاباتهم أشد أنواع التهكم ، وقوارص النقد . إلى البلاط وما ينغمس فيه من بذخ وإسراف وإستهتار بالتقاليد . بل لقد كان في البلاط شخصيات كبيرة متصلة اتصالا وثيقا بهؤلاء العلماء سيما كبيرات سيدات البلاط ، وهن اللاتي استخدم البارون « جريم » نفوذهن في تيسير دخول أسرة موتسارت إليه ، ذلك بأنه قدمها إلى شخصيات بارزة من أولئك النبلاء كان لهن الحظوة الأولى عند الممر كيزة « بومبادور » وهكذا وفقت أسرة موتسارت إلى شرف الدعوة للعزف أمام الممر كيزة « بومبادور » ثم أمام الأسرة المالكة . ولقد حدث في أثناء مقابلة أسرة موتسارت للممر كيزة أن أجلس

الطفل (فولفجانج) إلى منضدة أمامها ، وأخذت تداعبه مداعبة لم تخل
من كبرياء عرفت به . وإذا كان الغلام مدللاً من جميع من تعرف إليهن
من السيدات فقد أحنى رأسه للمركيزة — كعادته — يريد أن تقبله ،
ولكن المركيزة المتكبرة ، برغم أن والدها كان موظفاً عسكرياً بسيطاً
أشاحت بوجهها عنه مبالغاً في التأني

ولما كان الطفل الفنان لم يعتد تلك المعاملة ، ولم يسبق له مثلاً فقد
قال غاضباً : من تكون هذه التي ترفض تقبيلي ؟ لقد قبلتني القيصرة نفسها
وكان من حسن حظ الطفل أن المركيزة لم تفهم كلمة واحدة من
لهجته الألمانية كما أن من كان يعرف تلك اللغة من حاشيتها تغاضى عن
ترجمة مثل هذه العبارة الجارحة فاتتهى الأمر بسلام دون أن يترك أراسيئنا

ولقد أكرم أعضاء الأسرة المالكة وفادة أسرة موتسارت سيما
الطفل (فولفجانج) فإن الملكة وهي ابنة (ستانسلاوس لتسنسكي) ملك
بولندا ، والأميرات كن يتكلمن جميعاً اللغة الألمانية وكن كثير التجبب
إلى الطفل المبقرى ، حتى لقد كن يداعبنه في الطرقات العامة بباريس إذا
صادفن فيها مما أثار دهشة الشعب وعجبه

ولقد كان لنجاح الطفلين في بلاط (فرساي) أثر كبير في الحفلات
العامة التي كانا هما وأبوهما ، يقيمونها في باريس فصار الإقبال عليها شديداً

وكذلك تسابق النبلاء، والأشراف والأمراء، في دعوة الطفلين إلى حفلات خاصة وأهدوا إليهما كثيرا من الهدايا والطرف فاض بها العبد حتى خصصت لها النبيلة «أليك» التي كانت أسيرة موتسارت في ضيافتها حجرة في قصرها، وكان بين تلك الهدايا هدية قدمها البارون «بوزا» وهو ممن يقدرون الفن الموسيقى ويفهمونه حق الفهم كانت هديته كتاب «أغاني جيلرت» وقد فرح بها «فولفجانج» حتى لكان يفضلها على بقية الهدايا. ولقد صدر هذا البارون الكتاب بالإهداء التالي

«تقبل أيها المعجز يا ابن السبع سنوات، هذا الكتاب من أخ وصديق. أكثر من قراءته وتذوق أغانيه السماوية واخضع عليها في ساعات تجليك قسطا من انسجامك الصوتي الذي لا يبارى، قسطا يزرى بمن يحقر الأديان، إفراها واستعدها وصل لله»

ولئن كان «فولفجانج» من صغر السن بحيث لا يستطيع إدراك ما ينطوي عليه هذا الإهداء لقد قام والده بإفهامه مراميه وأوضح له ألم البارون مما كان متغشيا في باريس إذ ذاك من الإلحاد والتحلل من الأديان وكان الوالد يسبح في بحر من السعادة لنجاح طفليه! وما صادفاه من شهرة، وإذا كان رجلا عمليا في الحياة فقد عرف كيف يجمع إلى الشهرة، كسب المال الوفير والثروة الواسعة

واقدم السيد « كارمونتيلي » وكان محبا للموسيقى ، محبدا للفن
الرسم يحفر صورة موفقة لفولفجانج وهو يعزف بالبيانو وقد وقف
والده خلفه يعزف بالكان ، وأخته « ماريانا » تغني فكانت صورة نفسية
ذاعت واشتهرت

ولاقى « ماريانا » أيضا ، إلى جانب شقيقها الصغير نجاحا كبيرا
حتى لقد كانت تقوم بعزف أصعب المقطوعات ، وبلغ الأمر بالموسيقار
« شورت » وهو ألماني الجنس ، وقد اشتهر وقتئذ بتأليفه المقيدة ،
الصعبة الأداء أن تميز غيظا عند ما سمع مقطوعاته التي يفخر بصمـوبة
أدائها تقوم بعزفها طفلة في الثانية عشرة من عمرها ببساطة وسهولة
وايس أدل على براعة الطفل فولفجانج وعبقريته الفذة مما كتبه
البارون « جريم » وقتئذ إلى صديق له من أمراء ألمانيا يصف فيه الطفل
فيقول :

« بعيد عن التصديق أن يرى الإنسان مثل هذا الطفل يجلس
ساعة كاملة يعزف من إنشائه وتخيلته ، تسمعه في ذلك عبقريته بالبتدع
المبتكر من الألحان الساحرة التي يصوغها بذوقه السليم ويسوقها أفكارا
متلاحقة دون خلط ولا اضطراب ولاني أعتقد أن أكثر الأساتذة مرانا
من رؤساء الفرق الموسيقية لينقصهم تلك المعرفة العميقة بعلم انسجام
الأصوات (الهارموني) والتصوير اللذين يقوم الطفل بهما بالسليقة ،

فيظهر نتاجه دائما صحيحا موقفا
 إنه يكتب الموسيقى ويدع الحانها بسهولة معجزة دون أن يقترب
 من البيانو أو آلة ليحرب الحنا منها . ولقد أعطى قطعة رقص طلب إليه
 وضع نغمات « الباص » لها ، فأمسك بالريشة وكتب ما طلب منه في
 سهولة عجيبة دون أن يركن إلى الاستعانة بالبيانو
 ولقد حدث أن سأله إحدى السيدات أخيرا عما إذا كان في
 استطاعته مصاحبته بالبيانو إذا غنت قطعة إيطالية تحفظها بالسمع .
 ولم تكذب تبدأ السيدة الغناء حتى كان الطفل يتابعها محاولا إيجاد
 هذه النغمات المتوافقة بصورة صحيحة دون أن يعرف ما سيعقبها ، وكان
 الطفل على غير علم سابق بالمتطوعة . وما كادت تنتهي السيدة من غنائها
 حتى طلب إليها إعادتها مرة أخرى . وهنا صاحبها بالبيانو ، بنغمات
 منسجمة متوافقة ، لا بيده اليمنى فقط إنما بيديه الاثنتين دون أن يخطيء
 مرة واحدة . بل لقد طلب إلى السيدة أن تغني هذه القطعة أكثر من
 عشرة مرات كان في كل مرة منها يتابعها بلون خاص جديد من الهارموني
 المصاحبة يخلم على القطعة طابعا جديدا
 وإني لا أكتفك أن أعجاز هذا الطفل كاد يذهب بعقلي بل لقد
 أصبحت الآن أدرك تماما كيف يشق على المرء أن يصون نفسه من
 الجنون أمام شيء معجز .

ولقد تعددت دعوة أسرة موتسارت إلى البلاط الفرنسي ، وكان
« فولفجانج » يحرز في كل مرة نصرا مينا لا في العزف بالبيانو فقط
بل وفي آلة الأرغن أيضا

وشاء الله ألا يقتصر إعجاز هذا الطفل الصغير ، في باريس ، على
العزف بالآلات ، بل شاء أن يظهره للعالم موسيقيا ملحنا ومبتكرا مبدعا
فقدم لباريس أربع مقطوعات من تأليفه من نوع « السوناتات » للبيانو
بمصاحبة الكمان ، وقد طبعت هذه المقطوعات وكتب على غلافها إن عمر
مؤلفها سبع سنوات وقد كتب إهداء اثنتين منها للأميرة « فيكتوريا »
والأخرتين للنبيلة « تسيه » اعترافا بما قدمناه لأسرة موتسارت من جميل
وحسن رعاية . وكانت هذه المقطوعات الأربع أول ما ظهر للعالم
من مؤلفات هذا الطفل فأحدث ظهورها ضجة هائلة في الصحافة
الباريسية

رحلته إلى لندن

واعترفت أسرة « موتسارت » بمغادرة العاصمة الفرنسية بعد ما لاقتنه فيها من حسن الوفادة والإكرام ، إلى العاصمة الإنجليزية . وحسبنا من وصف استقبال أسرة « موتسارت » في بلاط الملك « جورج الثالث » وزوجته الملكة أن نورد ما سطره الوالد « موتسارت » في خطاب بعث به إلى زوجته بزالنسبورج وصفا لتلك الحفاوة قال :

« إن الإكرام الذي تلقانا به جلالة الملك والملكة يعجز أبلغ الكتاب عن وصفه ، فلقد زاد فيض التكريم حتى كان من الصعب علينا أن نتخيل أنهما ملك إنجلترا وملكتها لقد أصبحنا في بلاط جميع البلاد تكريما تعدى حد الوصف ، ولكن استقبلنا هنا فاق الجميع »

أقامت أسرة « موتسارت » في إنجلترا عاما كاملا أحيت فيه كثيرا من الحفلات الموسيقية في لندن . ونزحت في الصيف إلى المصايف حيث ينتقل إليها أشرف القوم وعليهم .

ومنذ أن ظهر « لفولفجانج » في باريس أول مطبوعاته الموسيقية ومرجل الابتداع يغلى في نفسه . ولكنه لم يشأ أن يقف به الأمر في هذه الناحية على التأليف لآلة البيانو بل بدأ يكتب الألحان لمجموعة آلات الفرقة الموسيقية . وكانت هذه المقطوعات تعزف في حفلاته فلاقته من

إعجاب الجماهير ما جعل مهارته في العزف بالبيانو عندهم في الدرجة الثانية
ولقد فوجئ الجميع بهذه العبقرية الفذة التي بدت تشق طريقها في
فجر حياتها . وشهد له بالتفوق جميع الموسيقيين المقيمين في « لندن »
في ذلك الوقت ، وكان من بينهم « يوحنا كريستيان باخ » رئيس إحدى
الفرق الموسيقية وأحد أنجال الموسيقار الخالد العظيم « يوحنا سباستيان باخ »
ولقد كتب الوالد « موتسارت » إلى زوجه يقول :

« إن طفلنا (فولفجانج) ليعرف وهو في الثامنة من عمره كل
ما يمكن أن يعرفه رجل في الأربعين ، ويمكن أن أقول لك إن درجة
معرفته عند مغادرتنا (زالتسبورج) ليست إلا خيالا بالنسبة لمعرفته الآن ،

العودة الى الوطن

وفي صيف عام ١٧٦٥ غادرت أسرة « موتسارت » إنجلترا قاصدة (هولاندا) بناء على طلب السفير الهولندي في بلاط أمير (أورليان) وفي الطريق ، في مدينة (ليل) بفرنسا مرض الوالد (موتسارت) وطفله (فولفجانج) ولم يقويا على استئناف الرحلة إلا بعد أربعة أسابيع وما كادت تلك الأسرة تصل مدينة (هاج) حتى أصيبت (ماريانا) بحمى شديدة هددت حياتها بالخطر وأشرفت بها على الموت فأسعفها أميرة (أورليان) بطبيبها الخاص ، وما كادت تنجو من الخطر بمعجزة حتي تسرب المرض نفسه إلى شقيقها (فولفجانج) فقاسى منه ما قاساه ثم كتب الله له السلامة واسترد الطفلان صحتهما فاستأنفا حياتهما الفنية من جديد وأحييا كثيرا من الحفلات في (هاج) و (أمستردام) و (أنتورب) وغيرها من مدن (هولندا)

ثم اعتزمت أسرة موتسارت زيارة البلاد السويسرية فيممت نحوها بعد أن تخلفت في طريقها بعض الوقت في باريس حيث أحييت حفلات أخرى في البلاط الملكي وعند بعض الأشراف والنبلاء

وسافرت الأسرة من باريس إلى (ديجون) و (ليون) و (برن) و (زيوريخ) فكانت (سويسرا) آخر الأقطار الأجنبية في تلك الرحلة

الفنية الموفقة التي قامت بها أسرة (موتسارت)
ثم عادت الأسرة إلى وطنها بعد أن مرت في طريقها بالبلاط البافاري
في مدينة ميونخ ثم سافرت منها إلى مدينتهم (زالسبورج) فبقيت فيها في
نهاية نوفمبر سنة ١٧٦٦

وقد استغرقت تلك الرحلة الفنية عامين ونصف عام تقريبا عادت بعدها
أسرة موتسارت بعد أن توجت في كل أوروبا بأكاليل النصر وصار لها من
الشهرة العالمية أكبر نصيب، لتعيش في مدينة (زالسبورج) الصغيرة

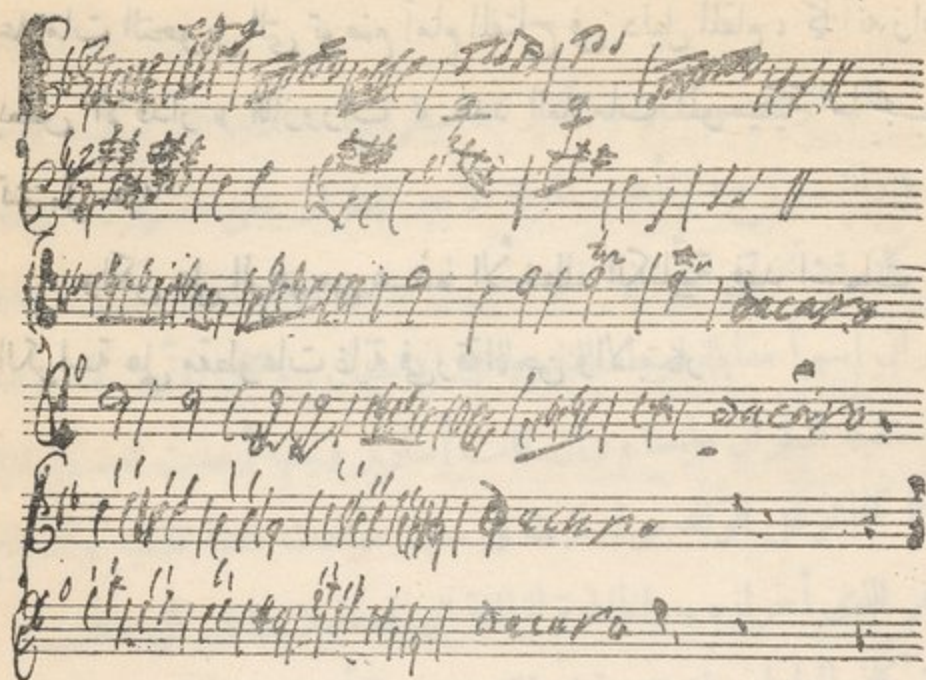
أثر من مؤلفاته

في عام ١٧٦٤ حيث كانت أسرة موتسارت في لندن وكان (فولفجانج) في الثامنة من عمره ، أهدى الوالد اليه كراسة لكتابة النوتة الموسيقية ولقد مرض الوالد في لندن في ذلك العام مرضا اضطره لاعتزال العمل ردحا من الوقت انتجاعا للصحة . فاعتنم (فولفجانج) الفرصة ، وأخذ يؤلف في أوقات فراغه مقطوعات موسيقية يدونها في تلك الكراسة الصغيرة التي كتب والده علي غلافها « فولفجانج موتسارت لندن ١٧٦٤ » وهذه الكراسة قد احتفظ بها حتى اليوم في دار الكتب الحكومية ببرلين وتعد من أتمن نفائس التاريخ الموسيقي

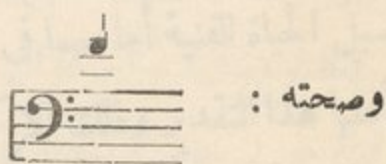
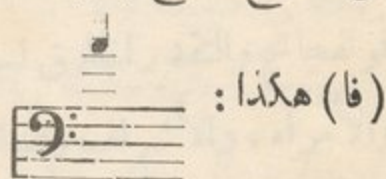
وتشتمل هذه الكراسة على ٤٣ قطعة من مختلف أنواع التأليف الموسيقي، وكانت كتابة (فولفجانج) فيها لغاية صفحة ٦٢ بالقلم الرصاص وبعد ذلك بالمسداد ، وتظهر كتابته في القسم الأخير وسطا بين النظافة وعدمها . وتلك المقطوعات في غالبيتها مؤلفة للبيانو ولكن من بينها مقطوعات لآلة الأرغن وأخرى لآلات الفرق الموسيقية

ومن المحتمل ألا يكون الوالد قد اطلع على محتويات هذه الكراسة والمحقق أنه لم يصصح مقطوعاتها إذ ورد فيها كثير من أخطاء الكتابة في النوتة ، وإننا لننشر فيما يلي بالزونكرغراف صورة لإحدى المقطوعات

وهي رقم ٣٦ في الكراسة :



ويرى في نوتة اليد اليسرى أنه يخطئ في كتابة الخطوط الإضافية
في مدرج مفتاح (فا) ذلك لأنه كما يرى في الصورة قد كتب صوت



وقد وقع هذا الخطأ بتلك المقطوعة ثمان مرات متوالية
ولم يكن مثل هذا الخطأ الكتابي مقصورا على تلك المقطوعة بل
وقع مثيله في غيرها من مقطوعات تلك الكراسة . ولم يخطئ فقط في

عدد الخطوط الإضافية لكتابة اليد اليسرى وإنما أخطأ أحيانا في عدد
علامات التحويل التي توضع أمام المفتاح في دليل المقام ، كما أنه زاد في
بعض الأقدار « المازورات » عدد العلامات الموسيقية عما يجب أن
تشمّل عليه

ولكن على الرغم من هذه الأخطاء الكتابية فقد اشتملت هذه
الكراسة على مقطوعات غاية في رقة اللحن والابتكار

بين أعدائه وحاسديه

كان الوالد موتسارت كثير الاضطراب ، شديد الفزع عند ما عاد إلى « زالتسبورج » وتأهب لمقابلة الأمير المطران يعلن حضوره ، وذلك بأنه كان قد تخطى الأجازة المرخص له بها ، وتوقع لذلك أن يقابله المطران أسوأ مقابلة فوطد النفس على الاحتمال . وكان الأمر كما توقعه إذ استقبله المطران عابسا ، وإن كانت أسارير وجهه أخذت تنبسط شيئا فشيئا كلما توغل الوالد موتسارت في سرد حوادث قصة طفليه والنجاح الباهر الذي أحرزه ، والحفاوة البالغة التي استقبل بها في كل مكان . ولئن كان المطران قد سمع قبل ذلك بتلك الأخبار فقد كان لسماعها من شفهي الوالد « موتسارت » أثر بالغ

وكان المنتظر بعد تلك الشهرة البالغة التي لاقتها الطفلان ، وبخاصة فولفجانج والتقدير الخارق لعبقريته الفذة ، والخطوة التي نالها لدى الملوك والأمراء ، والأشراف والنبلاء ، في معظم الأقطار الأوربية ، أن تكون سبل الحياة الفنية أما مهما في « زالتسبورج » ممهدة ، وأن يجدا من أهلها هذا التقدير وذلك الإكرام . ولكن كما هو مشهور معروف « لا يطاع نبي في قومه » فلقد كانت هناك طائفة من الموسيقيين في تلك المدينة اشتد حقدًا على الوالد « موتسارت » وعظم حسدها له وتفاقت

نقمتها عليه . كانت المطبوعات التي ظهرت من تأليف « فولفجانج » في لندن وباريس ترسل أول فأول إلى زالتسبورج وقد رآها القوم فعرفوا فيها فنا رائعا ، وتناجا فذا ، ولكن هل يمكن أن يكون مثل هذا النتاج ثمرة من ثمرات طفل في الثامنة من عمره ؟ إنه نتاج يحتاج لدراسة سنين طويلة وتجارب عدة . إذن لا بد أن يكون ذلك مستحيلا . وإذن فلا بد أن يكون للوالد مونتسارت نصيب الأسد في تلك المؤلفات فهو الذي أبدعها ، ونسبها إلى طفله رغبة منه في اجتذاب العالم إليه ، ولتكون تلك الشهرة غير محبوسة على العزف فحسب بل تتعداه إلى التأليف أيضا في هذه السن المبكرة

هكذا فكرت عقول تلك الطائفة من الموسيقيين الذين يحقدون على الوالد « مونتسارت » وطفليه ، وتناقل الناس في زالتسبورج حديث هذه الشائعة . وإذا كان مصدرها أناسا فنيين ذوي خبرة بالفن الموسيقي فقد صادفت قبولا من الجمهور ولاقت آذانا مصغية في الناس وبلغ هذا القول أسماع المطران فاستدعى فولفجانج إليه ووضع أمامه قصيدة دينية ، من نوع « الأوراتوريوم » وطلب إليه تلحينها بأصوات متعددة مختلفة للغناء والآلات . وضمانا لعدم اتصال أحد بالطفل في أثناء عمله حبسه وحده في غرفة من غرف القصر لا يتصل به فيها أحد إلا خادم يثق به المطران ليقدم للطفل ما يحتاج إليه من غذاء

وضروريات وقد تحدد لإنجاز هذا العمل ثمانية أيام . ولكن فولفجانج
أمم التلحين في نصف هذا الزمن ، وجاء عمله تحفة فنية ، وإبداعا في
التأليف لم يكن للناس عهد به . وقد برز مصنفاته بباريس ولندن ، ونال
من التوفيق ما قضى على كل ما كان يشاع عنه في « زالتسبورج »
اغتبط المطران بهذه النتيجة اغتباطا جعله يرخص للوالد موتسارت
من جديد بناء على طلبه في إجازة في نهاية العام يستأنف فيها رحلته إلى
فيينا هو وطفلاه

وكان قد تقرر أن يقام في فيينا مهرجان كبير لمناسبة زفاف الأميرة
« ماريا كارولينا » على « فردناند » ملك « نابولي » وقد رأى الوالد
موتسارت في تلك المناسبة فرصة سانحة لظهور طفليه أمام طبقة ممتازة
تستطيع أن تقدر التقدم الفني الذي أحرزاه ، وبخاصة فولفجانج
كان هذا أمل الوالد ولكن شاءت المقادير مساوئته وجاءت الأيام
بغير ما كان ينتظر ويشتي ، ذلك بأن وباء الجدري قد انتشر في تلك
المدينة القيصرية الجميلة ، حتى كانت الأميرة « جوزيفينا » من أوليات
ضحايا هذا الوباء . وهاجر كثير من علية القوم إلى جهات نائية اتقاء
لهذا المرض . وقد رأى الوالد موتسارت أن يحذو حذوهم ، فانتقل
بطفليه إلى مدينة « أولمتس » وإن كان ذلك لم يغيه شيئا فقد أصيبت
« ماريانا » ثم « فولفجانج » وظل الاثنان يرزحان تحت أعباء هذا

المرض مدة طويلة .

ولما عاد ثانية إلى فيينا في يناير سنة ١٧٦٨ ، وكان الطفل قد بلغ
الاثني عشر عاما ، كان الناس لا يزالون يعرضون عن الطفل خشية العدوى
إذ كانوا لا يزالون يخافون هذا المرض خوفا شديدا . وعلاوة على ذلك
فقد تغير الحال في البلاط النمساوي . ولئن ظلت القيصرية ماريا تريزا تحفظ
الود لأسرة موتسارت إلا أن زوجها فرانس الأول كان قد توفي وخلفه
« جوزيف الثاني » وهذا الأخير كان حاكما محبا للجمال الفني ، مولعا
بالموسيقى ولكنه رغم ذلك كان غاية في الاقتصاد ، شحيحا في الصرف
على الفنون

وكان طبيعيا أن تحذو الطبقة الراقية من الأشراف والنبلاء حذو
البلاط ، والناس على دين ملوكهم
وهكذا جاءت الظروف على غير ما تشتهي أسرة موتسارت وجرت
المقادير بغير ما تتمناه

على أن ذلك لم يمنع القيصر « جوزيف الثاني » من الالتفات إلى
عبقرية فولفجانج رغبة في أن يقوم الطفل بتلحين أوبرا هزلية يكون
هو على رأس فرقها الموسيقية في أثناء أدائها . وتحقيقا لتلك الرغبة تعاقد
مع الطفل فعلا (أفليجيو) متمد مسرح الأوبرا فيينا ، وقد توقع كسبا
وافرا ودخلا كبيرا بالنسبة لإقبال الجمهور على رؤية طفل في الثانية

عشرة من عمره يلحن الأوبرا ويقود بعصاه الصغيرة فرقتها الموسيقية
 الكبيرة وما يتبعها في المسرح من عدد وافر من المغنين والمغنيات
 وكان من الطبيعي أن تكون تلك الأوبرا إيطالية ، كبقية
 الأوبرات في ذلك الوقت ، فكتبها له الشاعر الإيطالي « لويجي كولتيني »
 وقد أسماها بالإيطالية *La finta semplice* ومعناها « المتغابي »
 وأقبل فولفجانج على عمله في التلحين أكثر ما يكون نشاطا ومثابة
 إلا أن كثيرا من الشخصيات الموسيقية التي كانت تقيم وقتئذ في فينا
 أحسوا بأن عبقرية هذا الطفل ستطفي عليهم ، وتطفىء شهرتهم جميعا
 لذلك وطدوا العزم على مناهضة هذا الطفل ، والوقوف في سبيل مشاربته
 وتعطيلها . هما كلفهم الأمر ، وصادفهم من صعب ، وإذن فلا بد من عدم
 ظهور الأوبرا التي يقوم بتلحينها إطلاقا . وانضم إلى هؤلاء نفر كبير من
 المغنين والمغنيات وعازفي فرقة دار الأوبرا وغيرهم ممن حرصوا على مناهضته
 انتهى فولفجانج من تلحين الأوبرا التي عهد إليه تلحينها ولكن
 « افليجيو » متعهد المسرح أخذ يتباطأ في إظهارها ، وقد شعر بما يدبر
 لها في الخفاء ، وما ينصب لها من حبال وشراك جعلته هو نفسه يخاف
 سقوطها ، لهذا أخذ يعتمد تأجيل التجارب والاستعدادات الأخرى
 من حين لآخر

ونفذ صبر الوالد مونتسارت بعد طول الأناة وشق عليه أن يرى

مجهود ولده يضيع هباء فأخذ يهدد ويتوعد ثم تقدم بشكاية إلى القيصر
ضد متعهد المسرح ولكن الشكاية لم تجديه نفعا ونجح المتآمرون فلم تظهر
الأوبرا إطلاقا

وأراد القيصر أن يعوض الطفل بعض ما أصابه من خيبة أمل
فطلب إليه تلحين قداس ديني كبير بمناسبة تدشين كنيسة وقام الطفل
بتنفيذ تلك الرغبة القيصرية أبرع ما يكون وأديت القطعة في يوم ٧ من
ديسمبر سنة ١٧٦٨ بحضور جميع رجال الحاشية، وقد ترأس الطفل الفرقة
وأمسك بعصاه الصغيره فكان كالأستاذ المسن الذي قضى السنين الطوال
في حنكة ودربة

كان هذا كل نجاحه الفني بفيينا في هذه الرحلة ولكن شاء الله أن
يكون لهذا النجاح القربد نتيجة سارة، ذلك بأنه ما كاد يعود من رحلته
هذه إلى زالتسبورج حتى أسند إليه المطران رأسه الفرقة الموسيقية
فكان هذا تقديرا ساميا لعبقريه الطفل الذي لم يكد يدخل في عامه
الثالث عشر

التعكير في الرحلة إلى إيطاليا

مضى عام كامل على أسرة موتسارت في مدينة زالتسبورج قضائها
فولفجانج في دراسة موسيقية شاقة. وما كاد ذلك العام ينقضي حتى

نبتت في رأس الوالد فكرة جديدة سرعان ما نضجت وأخذ يسمى لتنفيذها ذلك بأن الأوبرا التي قام ولده بتلحينها في فيينا ، وإن كان لم يكتب لها الظهور على المسرح فقد تبين الوالد في موسيقاها عظيم استعداد فولفجانج لتلحين المسرحيات ، وأن عبقريته الموسيقية يمكن أن يكون لها في تلك الناحية أحسن النتائج . وقد أقره على هذا الرأي جميع محبيه من المشهود لهم بسمو الذوق والمعرفة الموسيقية

وإذ كان من المحتم على كل من يرغب أن يذاع صيته في عالم التلحين المسرحي (الأوبرا) أن يولى وجهه شطر إيطاليا ويتلمذ على أساتذة الفن فيها لأن تلك البلاد كانت القابضة على صولجان هذا الفن وصاحبة السلطان فيه حتى شأت فيه جميع الأقطار والبلدان . وكانت البلاد الإيطالية مملأة بالمقاطعات التي لكل منها بلاط خاص ، كما أن حكامها وأمراءها ونبلاءها كانوا يتسابقون جميعا في إقامة المهرجانات الموسيقية ، وإحياء حفلات «الكرنفال» والفكاهة . وكانت الأوبرا خير ما يقدم في تلك الحفلات ، إذ امتزج فيها فن الموسيقى بالفن المسرحي . وكانت هذه المهرجانات والحفلات تقام في أوقات معينة من العام يطلق عليها بالإيطالية Stagione ومعناها الموسم . وكان الحكام والأمراء والنبلاء والأشراف يتسابقون في دعوة الموسيقيين والشعراء والملحنين والمغنين متنافسين في إظهار نتاج فني جديد . لذلك كانت هناك دائما فرصة سانحة لظهور

العبقريات الموسيقية الفذة ، ومجال واسع لعرض نتاج تلك العبقريات
وإذ كانت الأوبرا الإيطالية تعتبر في ألمانيا نموذجاً يحتذى فقد
تحتم على كل ألماني يود أن يكون النجاح حليفه في هذا الفن، وإن يصيب
فيه شهرة عالمية ، أن يتلمذ على إيطاليا . ولقد قطف الموسيقار الألماني
« هندل » وزميله « جلوك » أولى ثمرات نجاحهما في إيطاليا ، اذ قلما أولا
بتقليد موسيقاها قبل أن يستطيعا إظهار شخصيتهما الفنية ، ونتاج عملهما
المستقل

لهذا طمح الوالد موتسارت إلى الرحلة إلى إيطاليا ، وإن لم يكن
فيها ما يمكن أن يتزود طفله « فولفجانج » من علم مجهول له إذ لم يكن
ينقص معرفته الموسيقية شيئا ، ولكنه كان عليه أن يدرس عمليا حياة
المسرح ، وطابع الغناء الإيطالي ، وأن يحرز في الأهم واسم الشهرة في عالم
تلحين الأوبرا . وإنه إذا لم يصادف في إيطاليا مالا كثيرا فإن تلك الشهرة
كفيلة بأن تفتح أمامه خارج إيطاليا جميع أبواب الرزق
ولمّا كانت مثل هذه الرحلة قليلة الفائدة لشقيقته « ماريانا »
فقد اعتزم الوالد موتسارت أن يقتصر فيها على طفله فولفجانج . واذن
فقد حصل على الإجازة اللازمة من المطران ليرحلا إلى إيطاليا

الرحلة إلى إيطاليا

بدأت الرحلة إلى إيطاليا في شهر ديسمبر عام ١٧٦٩ وكان الجو صقيما وقد غطيت جبال الألب بالثلوج . وكلمنا أم من الوالد موتسارت وطفله فولفجانج في البلاد الإيطالية زادت زرقة السماء ، وفاح عطر الأزهار وانتشر في الجو فزاد خفقان قلبهما وأفعمت نفوسهما بالأمل في النجاح المنتظر وإذا كان حماس استقبال الإيطاليين لأهل الفن يفوق بكثير حماس الشعوب الشمالية فقد استقبل فولفجانج المعجز استقبالا لا عهد له به من قبل ، سيما في المدن الإيطالية « روفريدو » و « فيرونا » و « منتوا » وكانت مقدرته الفنية موضع الحفاوة في كل مكان ، ومثار الدهشة والإكبار حيثما سار ، حتى لقد وجد له في كل بلد أصدقاء وأنصار ، ولقبه الإيطاليون باسم « أماديوس » ومعناه المحبوب من الإله ، وكان هذا اللقب أسهل عندهم في النطق من لفظ فولفجانج ولقد أضيف هذا اللقب إلى اسمه الرسمي حتى صار هو نفسه يكتب اسمه « فولفجانج أماديوس موتسارت »

وما كاد الوالد وولده يصلان في رحلتهم إلى مدينة (ميلانو) في نهاية يناير سنة ١٧٧٠ حتى كانا قد بلغا ما تمنياه وحققا أملهما في الرحلة ، ذلك بأنه قد طلب إلى الطفل أن يقوم بتلحين أوبرا كبيرة للموسم القادم

في تلك المدينة يكون ظهورها في الشتاء التالي ولقد اتفق متعهد المسرح
معه على أن يقوم أحد شعراء إيطاليا بنظم الأوبرا حتى إذا فرغ منها
أرسلها إلى فولفجانج الذي أصبح ذا دراية تامة باللغة الإيطالية ، وعليه
بمجرد تسلم الأوبرا أن يبادر بتلحين الأجزاء ذات الألحان الإلقائية ،
ثم يعود بنفسه في شهر نوفمبر إلى (ميلانو) حيث تكون قد حضرت
إليه طائفة المغنين والمغنيات الذين سيختارون للأوبرا فيبدأ حينئذ بتلحين
المقطوعات المنفردة ، وألحان المحاورات الثنائية والثلاثية وغيرها من بقية
ألحان الأوبرا بعد دراسة أصوات كل من هؤلاء المغنين والمغنيات ليقوم
بعمل الألحان المناسبة لصوت كل منهم من ناحية طبيعته ، ومهارته الفنية ،
وقدرته على الأداء ، وكان هذا النظام هو المتبع في تلحين جميع الأوبرات
في إيطاليا وقتذاك

وخرج الوالد وولده من ميلانو فرحين مستبشرين فوليا وجههما
شطر مدينة (بولونيا) وكانت إذذاك حاضرة الفن الموسيقى يعيش فيها
الموسيقار (بآرماريني) أكبر علماء الموسيقى في القرن الثامن عشر لإطلاقا
وقد تخرج في مدرسته كثير من فطاحل الملحنين ، وكبار رجال هذا الفن
وكان حكمه على الفنان يعتبر حكما فاصلا ، لا في إيطاليا وحدها بل
وفي خارجها . وكان يعيش إلى جانبه في تلك المدينة وقتئذ علم من أعلام
الغناء الخالدين يدعي (كارلو بروشي) وكنيته (فارينللي) . اعترف هذان

العلمان بعنصرية فولفجانج وتبيننا فيها قوة فنية ستنتجى بالفن الموسيقى
ناحية خاصة وتخلق فيه تطورات جديدة



« فولفجانج موسارت في الرابعة عشرة من عمره »

وكانت في مدينة بولونيا أكاديمية موسيقية تعتبر أكبر أكاديمية في

العالم من نوعها ، حتى لقد كانت الأجانب من الفنانين يعدون من أكبر
أمازيهم انتسابهم إليها بعضويتهم فيها ، وكان على الراغب في ذلك أن يؤدي
امتحانا خاصا ، شاقا عسيرا . فمن أسعده الحظ بالنجاح فيه فاز بعضوية
الأكاديمية ويستطيع أن يعد نفسه في زمرة أساتذة هذا الفن
سكنت تلك الأمانة رأس فولفجانج الصغير ، فرغب أن ينال
شرف هذه العضوية . طفل في الرابعة عشرة من عمره يريد أن يكون
عضوا في أكاديمية (بولونيا) !! حقا لقد ذاعت شهرة هذا الطفل حتى
عمت سائر أوروبا ووصلت إلى أسماع أساتذة هذه الأكاديمية ، ولكنهم لم
يكونوا ليتصوروا أن يبلغ إقدام هذا الطفل إلى أن يعنى نفسه بهذه
الأمانة التي يستلزم تحقيقها معرفة أكيدة بأصول الكثير من العلوم
الموسيقية

وفي مساء ذات يوم حضر الوالد وولده في ساعة معينة ، وجلسا في
بهو الأكاديمية ، انتظارا لأداء فولفجانج الامتحان ، وحضر جميع أعضاء
الأكاديمية الموجودين في مدينة بولونيا وجلسوا في نصف دائرة واسعة
حيوا بعد ذلك الطفل المتقدم للامتحان التحية التقليدية ، وقام رئيس
الأكاديمية وقد ارسمت على وجهه علامات الجد ، وسلم فولفجانج ورقة
الامتحان وكانت قطعة من نوع الغناء المضاد المتبادل (الأنتيفوني) وكان
على المتقدم للامتحان أن يقوم بتلحينها لأربعة أصوات وهذا النوع من

التأليف بخضرم لقواعد معينة غاية في الدقة لا مجال فيها لتصرف المرء من
عندياته إطلاقاً

تسلم فولفجانج ورقة الامتحان في هيئة وخشوع ، وبأنحاء متواضعة
نم كان من أمره أن لقي ما لاقاه في (زالتسبورج) من المطران ، ذلك
بأن هيئة الأكاديمية قد ساقته إلى غرفة خاصة أقفلت عليه بعد أن حددت
له زمن الإجابة على الامتحان بمدة ثلاث ساعات . وإذا قد ساقه الحاجب
إلى الغرفة وغاب عن نظر الوالد ، أخذ قلب الوالد في الخفقان ، وتسبب
المرق من جبينه خوفاً على ولده (إذ كان يعرف حق المعرفة أن كثيراً
من الموسيقيين ذوى الشهرة الواسعة قد أخفقوا في الامتحان)

وما انقضت نصف ساعة من الزمان حتى حضر الحاجب يعلم أن
الأستاذ الصغير قد أعطى الإشارة الدالة على انتهاء زمن الامتحان
كان ذلك مثار الدهشة والمعجب الشديد لدى جميع أساتذة الأكاديمية
لأنه كان من المحتم على أكبر الفنانين أن يستغرق جميع الثلاث ساعات قبل
إنجاز هذه العملية الشاقة في التأليف

بقي فولفجانج في غرفته منفرداً بينما أخذت هيئة الأساتذة تفحص
عن إجابته واحداً واحداً . مضت ساعة كاملة وورقة الإجابة تنتقل بين
أيديهم والوالد في غمرة من الخوف لم ينسها طول حياته . ثم كان أخذ
الأصوات بطريق الكرات البيضاء والكرات السوداء ، وكانت الأولى

للدلالة على النجاح، والأخرى على الرسوب وكان كل عضو من الأعضاء يمر به كيس يسقط فيه كرة معينة بيضاء أو سوداء . وأخذ الكيس ينتقل من عضو إلى عضو في سكون رهيب حتى جاءت ساعة الفصل أفرغ الرئيس الكيس فكانت جميع الكرات بيضاء . وإذن فقد أعلن الرئيس أن المتقدم للامتحان قد قبل بالإجماع عضوا بالأكاديمية وهنا فتح الباب وأقبل الطفل ابن الرابعة عشرة فأخذ الجميع يستقبلونه بالتصفيق الحاد متقين يحيا الأستاذ يحيا عالم الهارموني . فاض قلب فولفجانج بالفرح ، وهطل الدمع من عيني الوالد وقد ضمه إلى صدره

مواصلة الرحلة في إيطاليا

غادر الوالد موتسارت وطفله مدينته بولونيا بعد أن كتب أنه لها النجاح الفنى وأصبح فولفجانج الصغير عضوا في أكاديميتها الموسيقية بعد أن جاز امتحانها الخطير على النحو الذى ذكرناه ، وقصدا إلى مدينة فلورانس حيث استقبلا استقبالا رائعا ولقى فن « فولفجانج » فيها مالقيه في بقية البلاد الإيطالية من حسن التقدير ، وعظيم الإعجاب ، وكسب فيها من عليه القوم وأشرافهم كثيرا من الأصدقاء والمعجبين . ثم غادرها إلى مدينة روما لحضور الاحتفالات الكبرى والمهرجانات

الرائعة التي تقام فيها بمناسبة أسبوع القرايين الذي يتقدم عيد الفصح
وزل الوالد وولده بروما في ضيافة أوسلنجي رسول البابا بناء على
توصية كتبت له ، وكان هذا شرفا كبيرا لهما فلم يكن ليتشرف بمثل هذه
الضيافة إلا الشخصيات المقربة من بلاط البابا . وقد تسابقت الأسر
الأرستقراطية بتلك المدينة إلى دعوة الفنان الصغير المبقرى ذى الشهرة
العالمية والصيت البعيد وشادت بفنّه وبالفن في إطرائه والثناء عليه . ولقد
كان لما احتوت عليه تلك المدينة القديمة من بدائع الفن وروائع الآثار
والتماثيل التي بلى الزمان ولا تزال في جدها ونضرتها تأثير قسوى في
نفس فناننا الصغير . وقد ضاعف هذا الجمال الفني جمال مهرجانات أسبوع
القرايين ، الذي كانت تحتفل به تلك المدينة احتفالا منقطع النظير لا تلاحقها
فيه مدينة أخرى إطلاقا ، ولقد تدفقت إليها الجماهير من كل صوب
وهرع إليها الناس من كل حدب أفواج وطوائف ، إما لزعة دينية أو
لمجرد الرغبة في رؤية تلك المهرجانات . وازدحمت طرقات المدينة بالغرباء
من الزائرين ، حتى أصبحت معرضا نفعا لمختلف أزياء الجماهير من مختلف
الطبقات ، فقيرهم وغنيهم ، سوقتهم وأمرأهم . وكان الجميع يسيرون جنبا
إلى جنب لا فرق بين كبير وصغير .
وفي آخر ليلة من ليالي المهرجانات ، ليلة الخميس الحزينة ، أخذت
المدينة زخرفها وازينت ، وبلغت المهرجانات أوج فخامتها ، وكانت

الكنيسة البطرسيّة أكثر الأماكن بهاءً وضياءً ، حيث تسابق إليها المحتفلون
كلهم يحاول رؤية البابا تبركا به ، وأخذت الفرقة السكستية (نسبة إلى
مؤسّسها البابا سكستس الرابع الذي عاش في نهاية القرن الخامس عشر)
مكاتها في الكنيسة وكانت هي الفرقة المخصصة بغناء التراتيل ، وكان بين
تراتيلها قطعة تعرف بالدعاء الخالد ، يرجع عهد تأليفها إلى نهاية القرن
السادس عشر ، وهي قطعة دينية غريبة في تأليفها الموسيقي ، اختلفت
هذه الفرقة وحدها بترتيلها ، ولم يكن من المتيسر سماعها في غير هذه
الكنيسة ولمناسبة مهرجانات أسبوع القرايين . وقد كان ذلك دون تداولها
وانتشارها بين الجمهور ، ذلك فضلا عن أنه كان ممنوعا تدوين ألحانها منعا
بأنها حتى لقد كان معنى الفرقة مهددا بأقصى العقوبات إذا هو أفشى سرها
وكشف عن سر موسيقاها ، على أنه لم يكن مصرحا للمعنى الاطلاع
على غير النوتة الخاصة بصوته دون سواه
كانت هذه الفرقة وأغانيتها موضع اهتمام فلول الجانج الصغير حتى لقد
انصرف عن كل شيء آخر سواها
أقبل البابا ، وأطفئت أنوار الشموع دفعة واحدة إلا خمس عشرة
شمعة منها كانت تضيء فوق فرقة التراتيل وبقي المكان بعد ذلك في ظلام
رهيب
بدأت الفرقة في التراتيل ، وكان عدد أفرادها اثنين وثلاثين مغنيا

يرتلون دون مصاحبة الآلات الموسيقية ، وكان البرنامج أن ترتل الفرقة
خمسة عشر ترتيلا يعقبها ترتيل « الدعاء الخالد » . وكلما انتهت الفرقة من
أداء أحد التراتيل أطفئت إحدى الشموع ، وهكذا كانت تزداد ظلمة
المكان ، وتشدد حلولته كلما توغلت الفرقة في ترانيلها وازدادت الألحان
حزنا وتعبيرا عن الأسى والألمين كأنما تتحمل النغمات آلام الإنسانية ،
وعذاب البشر ، رفعها إلى الباري العظيم المتصف بالخلود . فلما انتهت
الفرقة من ترتيل النشيد الخامس عشر أصبح المكان كأنه القبر في ظلمته ،
وهنا بدأت الفرقة في ترتيل « الدعاء الخالد » وهو معجز بما احتواه من
ألحان سهلة ممتعة صافية ، حتي ليخيل للناس أنها إلهام من السماء وأنها
ليست من ابتداء البشر ، بل إن تلك الأغنية لتسمو بالفرقة نفسها حتي
ليتخيل المرء أن هؤلاء المرتلين من طبقة غير طبقة الناس ، وأن تلك
الآصوات ليست صادرة من حناجر آدمية وإنما هي صادرة من أعماق
الإيمان الديني

انتهى الاحتفال على هذا النحو التقليدي ، فكان فولفجانج أثناءه
في غيبوبة حتى اضطر والده أن يوقظه من حلمه العميق فتنبه إلى العالم
الخارجي وقد أخذ جمهور الناس ينصرف من الكنيسة في سكون رهيب
وصمت عميق

في الليلة التالية لهذا الاحتفال ، قام فولفجانج من سرير نومه

وأضاء شمعته ، وأتى بورق النوتة وبدأ يكتب من ذاكرته لحن « الدعاء
الخالد » وقد سكن اللحن في رأسه صوتاً بصوتاً ، وباطوطة باطوطة . فلما تنفس
الصباح وضع الطفل بين يدي والده ما كتبه في خلوته ليلاً ، فذهل الوالد
وغمرته الدهشة المقرونة بشعور الفرح والسرور ، إذ استطاع طفله الذي
لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره أن يعي في ذاكرته لحن « الدعاء الخالد »
ولم يسمعه غير مرة واحدة ، وهو لحن معجز لم يستطع نقله أي
إنسان قبله .

وكان اليوم يوم الجمعة الحزينة ، وكانت هذه التراتيل ستماد في
الكنيسة للمرة الثانية ، فانهز فولفجانج القرصة وأخذ معه أوراقه التي
دوّن فيها لحن الدعاء بمد أن خبأها في قبعته فاستطاع بذلك أن يصححها
وأن يستوفي كل ما يمكن أن يكون قد فاته فيها من الأصوات
وما انقضى على هذا الحادث أيام قليلة حتى عزف فولفجانج هذا
اللحن أمام أحد أفراد الفرقة السكسدية وهو المنى المشهور « خرستوفوري »
ولشد ما كانت دهشته عند ما سمع اللحن لا ينقصه نغمة واحدة مع علمه
اليقين بصعوبة هذا الأسلوب الكنسي القديم في التلحين وتعرس نقله
وهكذا أخذ الوالد وولده يتنقلان في البلاد الإيطالية من مدينة
إلى أخرى حتى انتهى بهما المطاف إلى « نابولي » وكانت تلقب وقتئذ
ملكة المدائن ، تسودها روح فكهة مريحة ، ويعمها الرخاء ، ورغد العيش

تبيع طرقها بالباعة المتجولين ، أو الجالسين على أفاريز الطرق ، كل يتغنى
بالنداء على سلعته بكيفية خاصة ، فكانت المدينة بما فيها صورة جديدة لم
يشهدها من قبل في فينا وباريس ولندن وغيرها من المدن التي رحلنا إليها
وأقبل المساء فكان منظر البحر الأبيض يطوق المدينة وقد انعكس

ضوء القمر على صفحة مائه فظهر رائعاً ساحراً
أثر ذلك أكبر الأثر في نفس فنائنا الصغير الذي استقبل ووالده في
تلك المدينة أبلغ استقبال ، حتى لقد عنيت بأمرهما النبيلة « كلونتس »
فقدمتهما إلى أرقى الأوساط الأرستقراطية وأتاحت للصغير الفرصة
ليقوم بالعزف أمام أمراء تلك المدينة وأكابرها

وكان من أهم الحفلات التي دعى إليها للعزف بالبيانو حفلة أقيمت
بمعهد الموسيقى حضرها طائفة الأرستقراطيين وأساتذة المعهد وكبار طلبته
ما كاد العزف يتبدى في تلك الحفلة حتى عم المكان صمت عميق
وسكت الجهم المحتشد كأن على رأسه الطير ، وهنا بدأت مراجل الحقد
تغلي في صدور بعض الطلبة وأولياء أمورهم ، إذ صعب عليهم أن يروا
طفلاً في الرابعة عشرة من عمره يتسلط على تلك الآلة هذا التسلط
المعجز بينما هم وقد قضوا في دراستهم الأعوام الطويلة في جهد متواصل
وكد ومشقة لم يقطعوا غير مرحلة لا تكاد تذكر بالنسبة لفن هذا الطفل
الصغير . وهو طفل أجنبي من بلاد المانيا المتأخرة التي لا يمكن أن يجارى

أبناءؤها أبناء إيطاليا التي تعتبر موئل الفن وموطن الموسيقى . إذن لا بد
وأن يكون في الأمر دسيسة وأن تكون هذه الحالة غير طبيعية . وبدأ
القوم يتهايمسون فيما بينهم ويسر كل إلى جاره شيئا في أذنه ، وراجت
فكرة غريبة في البهو ، وإذا بواحد من الجمهور ، وهو الموسيقار
« جوميللي » يصعد إلى المسرح حيث كان « فولفجانج » يمزف بالبيانو
وخاطبه قائلا :

— أيها الأستاذ : إن القوم يعتقدون أنك ساحر ، وأن هذا العزف
القديم لا يرجع إلى مهارتك ، إنما هو عمل قوة سحرية مصدرها
خاتم الماس الذي في إصبعك
فأجابه (فولفجانج) باسم :

— إن هذا الخاتم هدية لي من جلالة القيصر « ماريا تريزا » وهو لي
بمثابة الطلسم حقا ، إذ يذكرني دائما بهذا الرضاء السامى ، وأيسر له على
من أثر سحرى غير ذلك

وهنا خلم « فولفجانج » الخاتم من إصبعه وألقاه إلى جانبه أمام
أعين الحاضرين ، وعاد إلى عزفه أبدا مما كان وأروع ما يمكن أن يصل
إليه الفن حتى ضجبت المصالة بالنداء تحية :

« يعيش الأستاذ يعيش الموسيقار »
وقد وجم أصحاب فكرة الاعتقاد السحرى وعمهم الخزي

وعاد الوالد وولده الى «روما» ثانية حيث تمكن فولفجانج بواسطة
«الكردنيال بللافيتشي» من مقابلة البابا مقابلة خاصة أنعم عليه فيها بوسام
ديني منحول لحامله أن يلقب نفسه بالفارس، وإن كان فولفجانج لم يستخدم
هذا اللقب في حياته إطلاقا، ذلك بأنه أراد أن يكون فنانا فحسب، وأن
يظل حياته كذلك

وتسلم فولفجانج أثناء إقامته في «روما» رسالة من الشاعر
«إيجناساتي»، وهي عبارة عن رواية الأوبرا التي كان يرتقب
وصولها بفارغ الصبر، والتي كان عليه تلحينها المدينة «ميلانو»، وعنوانها
(متردانس ملك بونت)

وعلى أثر وصول تلك الرواية لفولفجانج أتم جزءا كبيرا من ألحانها
اللقائية، وأرسل بها فعلا إلى ميلانو. ثم سافر إليها مع والده في منتصف
شهر أكتوبر ولم يكن المغنون والمغنيات الذين سيقومون بغناء الأدوار
الرئيسية في تلك الأوبرا قد بلغوها بعد فلم يستطع عمل شيء، إذ كان
لا بد له من معرفة مناطق أصواتهم أولا ليصوغ لهم ألحانا تتفق
وحناجرهم شأنه في ذلك شأن الحائك الذي يحيك الملابس وفاق أجسام
أصحابها

وبدأ هؤلاء المغنون والمغنيات يقدون إلى (ميلانو) واحدا واحدا
وكان أسبقهم جميعا في الحضور المغنية الأولى للأوبرا، وهي ألمانة المولد،

ولكنها حملت اسم زوج أمها (برناسكوني) الايطالي الذي يرأس الفرقة
الموسيقية ، وقد تبناها صغيرة . ونشأها تنشئة موسيقية ، إذن فقد كانت
هذه المغنية مواطنة لفولفجانج وهذا ما حفزها للميل إلى موسيقاه ، على أنها
عرفته من قبل في فينا أيام كانت تعمل في المسرح تحت إدارة (فليجيو)
ورأت بعينها ما منى به هذا الفنان الصغير في بلاده من خيبة الأمل ،
وتألب الفنانين من المواطنين والايطاليين عليه . وكيف وقفوا في سبيل
ظهور أوبراه فكانت ذلك مدعاة لعطفها عليه والرغبة في معاونته
وكانت هذه المغنية ذات صوت حسن وحنجرة موهوبة
وقد عرف فولفجانج كيف يبدع الألحان الموافقة لها ، وكيف
يظهر محاسن صوته ونواحي الفضل فيه ، فسعدت هذه المغنية بدورها ،
وأقبلت على دراسته ألحانه بشغف وميل عظيمين . كذلك استطاع
الموسيقار الصغير أن يرضى ببقية المغنين والمغنيات . وأن يلحن لكل
منهم ما يناسب صوته حتى أرضى الجميع رضاء تاما .
والكن الدسيسه التي قامت ضده في (فيينا) عادت تطل برأسها في
(ميلانو) إذ كان هناك حزب قوى يعمل في الخفاء على إسقاط هذا الفنان
الصغير . وقد عمل أعضاؤه على تسميم روح الجمهور قبل ظهور الأوبرا رغبة
في إسقاطها وألبوا عليه جماعة الفنانين ، وشد ساعد هذا الحزب وفرة الفنانين
الايطاليين الذين يحقدون علي هذا الفنان الصغير ، إذ كانوا يجدون من

العار أن يعلم الناس أن تلحين الأوبرا يمكن أن يقوم به طفل أجنبي،
لأنهم مسرح فنّي أرسقراطي في إيطاليا

نعم لقد اعترف أساتذة أكاديمية بولونيا بمقدرة هذا الطفل وعلمه
إلا أن هذا الاعتراف لا يمكن أن ينهض دليلا على استطاعته تلحين
أوبرا تلحيننا جيدا مناسبا، وليس أدل على ذلك من أن هؤلاء الأساتذة
أنفسهم، وهم أكثر الناس علما بالموسيقى، لم يؤلف واحد منهم أوبرا
واحدة

بمثل هذه الدعاوى كانت تسمم أفكار الشعب بل والمغنين أنفسهم
حتى أصبحوا يعتقدون أن كرامتهم الفنية تتنافى والقيام بأداء ألحان
يضمها مثل هذا الطفل الصغير. حتى لقد حاولوا التأثير على المغنية الأولى
« برناسكوني » واجتذابها إلى صف المعارضة بعد أن أفهموها أنه من
الخطر على سمعتها الفنية أن تقوم بغناء الحان ولد لما ينبت شعر لحيته، ولقد
عرضوا عليها أن يضعوا ألحان موتسارت وقد أعجبت بها وسط مؤلفات
أخرى ينسبونها للموسيقارين الإيطاليين، وأن تقوم بغنائها على هذا
الوضع، ولكن المغنية لم تأبه بكل هذه الدسائس، وظلت مؤمنة بعبقرية
مواطنها الصغير.

ولئن تكتم القوم ما كان يجري في الخفاء ضد تلك الأوبرا، لقد
أحس الوالد موتسارت بهذه الشباك تحاك حول ولده، وكان كلما

اقتربت مواعيد التجارب ازداد هم الوالد وقلقه

أما « فولفجانج » فكان يسير في طريقه ، فنانا لا شأن له بالعالم الخارجي ، يسير في طريقه واثقا من نجاح أوبراه ، لا يثنيه عن متابعة عمله شيء من ذلك . حتى لقد كان يستسيغ الجو الذي يعده الغير مشوشا غير مناسب للعمل . ومن أظرف ما حدث في ذلك ما كتبه إلى شقيقته إذ ذاك يقول :

« يسكن فوقنا عازف بالكان ، وتحتنا عازف بالكان كذلك ، وبجوارنا أستاذ يعلم الغناء ، وتجاهنا عازف بالزمار . جو مرح يساعد على التلحين ويوحى بالأفكار الموسيقية »

ولقد لازمته هذه العادة . عادة عدم التأثر بالعالم الخارجي أثناء تفكيره ، طوال حياته ، حتى لقد تم له عند ما كبر أن صاغ أحسن ألحانه في أثناء لعبه بكرات (البليارد)

وفي السابع عشر من ديسمبر بدأت أول تجربة كبيرة للأوبرا . ففوجيء جميع المشتركين في أدائها من مغنين ومغنيات وأفراد الفرقة الموسيقية بما أدهشهم من عذب الألحان ورائم التأليف ، ورضى كل بما قسم له منها رضا تاما . نفخر الدساسون قضيتهم وانتصر الفن

وأخيرا حل اليوم الثاني من عيد الميلاد . وهو اليوم الذي تمحدد لظهور تلك الأوبرا لأول مرة علي المسرح ليشهدها الجمهور . هاجت

الخواطر في جميع أنحاء ميلانو وانقسم أهلها طائفتين : طائفة تناصر
الفنان الصغير مؤمنة بمبقريته المعجزة والأخرى تناوئه وتعمل على فشل
نتاجه

حان موعد الابتداء ووقف « فولفجانج » الصغير يدير فرقته
الموسيقية المؤلفة من ستين عازفا وقد أمسك بعضا القيادة في يده بثبات
ورباطة جأش كما أخذ يقود حركة الغناء فوق المسرح : وكان كلما انتهى
مغن أو مغنية من أداء قطعة غناء منفرد ارتفعت تحية الجمهور للفنان :
« يعيش الأستاذ ، يعيش الأستاذ الصغير »

دوى المكان بهذه التحية عشرات المرات في أثناء التمثيل وتزايدت
حماسة الجمهور حتى أخذ يردد هذا النداء في الطرقات بعد الخروج من
المسرح

وهكذا كتب الله النصر المبين للفنان الصغير الأجنبي الذي لما ينبت
شعر لحيته

ولقد بلغ من نجاح هذه الأوبرا أن مثلت عشرين مرة متوالية
كان المسرح في جميعها يضيق بالوافدين إليه والمتحمسين لتحية الفنان
ولقد تمنى أهل ميلانو أن يسعدهم هذا الفنان الصغير في القريب
بتأليف شيء جديد من روائع ألحانه ، ولم يغادر تلك المدينة إلا بعد أن
وعدهم بتأجيل أوبرا أخرى خصيصا لمهرجانات كرنفال عام ١٢٧٢ .

ثم عاد « فولفجانج » ووالده إلى مسقط رأسه زالتسبورج وما كادا يصلان إليها حتى تلقيا أمر القيصرية « ماريا تريزا » بتكليف « فولفجانج » تأليف مقطوعة موسيقية لمناسبة حفلة الأمير « فردناند » بالأميرة « بياتريش » في ميلانو . وإذن فقد بادر « فولفجانج » بالعودة ووالده إلى هذه المدينة مرة أخرى فبلغاها في نهاية أغسطس حيث استقبلا استقبالا رائعا من جمهرة الأصدقاء والمعجبين، بل لقد استقبلت الأميرة المخطوبة الموسيقار الصغير أفخم استقبال ولقد بلغ من نجاحه في مقطوعة الزفاف أن أعيد عزفها مرارا متتالية في ميلانو على غير ما كان مألوفاً في مثل تلك المقطوعات التي توضع لمناسبات خاصة تحبس عليها .

وفي اليوم الثاني من عيد الميلاد عام ١٧٧٢ كان « فولفجانج » قد بر بوعده وأعد العدة لإظهار الأوبرا الجديدة التي كان يتشوق إليها أهل « ميلانو » وقد أسماها « لوسيو سيلا » وقام فيها أيضا بقيادة الفرقة والمسرح وأصاب من النجاح فيها أضغاث نجاحه في سابقتها وتوالي تمثيلها عشرات المرات

وانهالت الطلبات بعد ذلك على الموسيقار الصغير بصياغة ألحان جديدة إلا أنه مع الأسف كانت هذه الأوبرا آخر نتاج قدمه للبلاد الإيطالية ، ذلك بأن المقادير جرت على غير ما يريد ، ووقع في زالتسبورج انقلاب أثر في مستقبل « فولفجانج » ولم يكن في صالحه كما سنبينه فيما بعد .

خيتبائل

تبدل الحال في مدينة « زالتسبورج » إذ مات أميرها المطران « زيمجموند » وتربع خلفه المطران « هيرونيموس فون باولا ». ولئن كان هذا الأمير خلفا صالحا ساهرا على شئون إمارته لقد كان غير موفق في اجتذاب قلوب حاشيته إليه، وحبها له . وكان موقف الوالد موتسارت وولده « فولفجانج » من هذا الأمير غاية في الحرج والسوء ، فلم تكن عبقرية الفنان « فولفجانج » في بصر الأمير وتعلقه شيئا يستوجب الإعزاز والإكبار ، لهذا حرمه ما كان يتمتع به في عهد سلفه المطران الأسبق من الترخيص له في إجازات يقضيها في رحلات فنية في ربوع البلدان المختلفة . وكان هذا المطران الجديد يسمى مثل هذه الرحلات الفنية « تجوال الاستجداء »

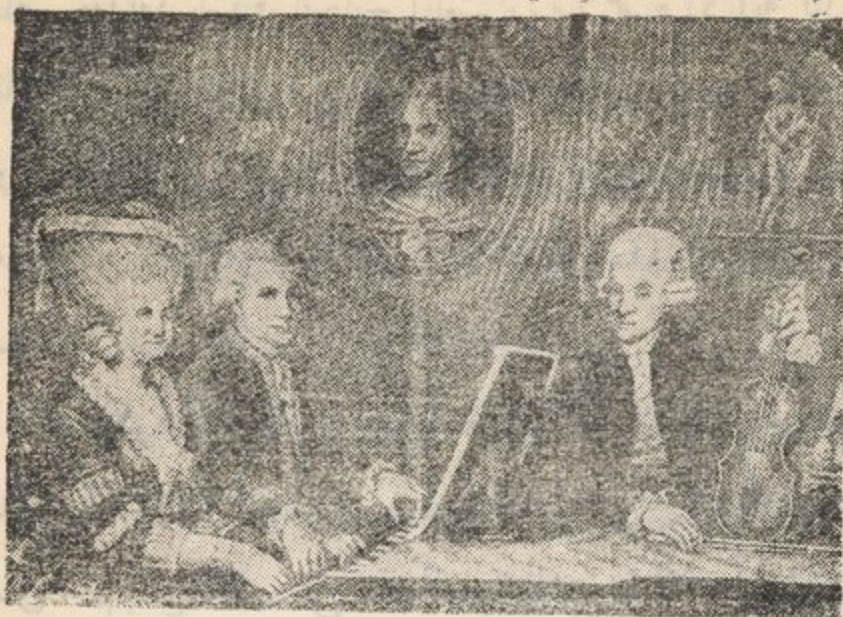
ولم يكن فهو لم يرخص له في الرحلة إلا مرة واحدة ، على سبيل الاستثناء حيث استدعاه إليه « مكسمليان الثالث » أمير مقاطعة بافاريا ليلحن له أوبرا « البستانية المتغايرة » خصيصا لمهرجان كرنفال عام ١٧٧٥ قام الوالد موتسارت وولده بهذه الرحلة في أوائل ديسمبر سنة ١٧٧٤ وكان قد تحدد منتصف شهر يناير موعدا لظهور تلك الأوبرا فأحرز الفنان الصغير فيها نصرا مبينا شهدته شقيقته « ماريانا »

وفي نفس هذا العام حضر الأمير « مكسمليان » إلى مدينة
« زالتسبورج » فكلف « فولفجانج » تلحين أوبرا « ملك الرعاة »
احتفاء بهذه المناسبة

ثم قضى الأمر بعد هذه السنة على المسكين « فولفجانج » وكتب
لتلك العبقرية الفنية الجبارة أن تقبر في مدينة (زالتسبورج) الصغيرة
وأن تقنع برأسه فرقة المطران الأمير بوظيفة لم تتجاوز الجنيهين شهريا
وكتب عليه أن ينسى العالم أجمع ويتغاضى عما أحرزه من النصر الفني
المبين، وكان لا بد أن يخيم نسيج النسيان على تلك الشهرة الذائعة في
أنحاء تلك المدن المترامية الأطراف التي ذاع فيها صيته، وبالغ أهلها في
تكريمه والاحتفاء به

أحس (فولفجانج) في نفسه مرارة هذا الانحباس . وزاد شعوره
بقساوته وهو الفنان الذي تعودت نفسه أن تكون حرة طليقة ، فاعتزم
تخطيم هذه السلاسل والقيود ، وأن يرحل إلى البلاد الأجنبية مهما كلفه
الأمر ، ، فهو لا بد واجد فيها رزقا واسعا واعله يوفق إلى وظيفه ثابتة
تتفق ومركزه الفني

أعد العدة لذلك سرا ، وقام بتلحين كثير من المؤلفات الموسيقية التي
أعدها للعرض ، فلما تم له الأمر أوعز إلى والده بالذهاب إلى الأمير
المطران ليستأذنه لهما في الرحيل



أسرة موتسارت : الوالد يعزف بالكمان
وفولفجانج وشقيقته ماريانا يعزفان بالبيانو
ذهب الوالد موتسارت الى أميره يسأله هذا الترخيص ولكنه
رفضه بإعانة صلف وكبرياء
إذن لم يجد (فولفجانج) أمامه إلا أن يستقيل من خدمة هذا
الأمير فكتبها استقالة قصيرة تنم سطورها القليلة عن الرهبة والخوف .
وخشى الوالد أن يترتب على استقالة ولده فصله هو أيضا من وظيفته ،
ولكن ذلك لم يحدث إذ اكتفى المطران بقبول استقالة الفنان الصغير
ولئن أطمان الوالد موتسارت على بقاءه في خدمة الأمير المطران
لقد اترحمته الآن صعوبة جديدة ، تلك أنه أصبح عاجزا عن اصطحاب
ولده في رحلته ، ولم يكن من السهل عليه أن يتركه يقوم وحده بتلك

الرحلة . حقا لقد بلغ (فولفجانج) العشرين من عمره إلا أنه كان فنانا ،
وفنانا فقط ، يجهل الكثير من شؤون الحياة بخلاف والده الذي أخبرها
فصار بها عليما . كان دائم التفكير في فنه ، مولعا به ، منغمسا فيه لا يهتم
بما يحوطه من عالم خارجي فكان كالطفل في سذاجته وجهله بأسرار
الحياة

ماذا يكون إذن مصير هذا الفنان الشاب إذا ترك وحده يقوم
برحلات لا يعلم إلا الله مدى ما يصادفه فيها من شدائد وعقبات
ومشاق ؟ لم يكن للتغلب على هذه المعضلة الشديدة إلا حل واحد ذلك
أن تقوم الأم مقام الوالد فتصحبه في رحلته سيما وقد كانت أما حازمة
مدبرة ذات حنكة وتجربة

وفي سبتمبر سنة ١٧٧٧ بدأت رحلة الأم مع ولدها « موتسارت »
الصغير . وكان فراقهما للوالد وابنته « ماريانا » شديدا مؤلما . ولو علم الوالد
وابنته ما خبأ لهما القدر من جعل هذا الوداع وداعا أبديا للأم التي ستلقى
رَبها في تلك الرحلة لكانا أشد ألما وأكثر وجعا

كانت « ميونخ » أولى المدائن التي زارها ، فطعم الفنان الشاب أن
يمجد له في بلاط أميرها وظيفة ثابتة يعتمد عليها في حياته ، سيما وأنه غير
مجهول القدر في هذا البلاط ، وقد أحرز فيه آخر انتصاراته الفنية
بتلحين أوبرا « البستانية المتغاية » التي لحنها خصيصا لهذا الأمير منذ

ثلاثة أعوام ، وقد أكسبه هذا النصر أصدقاء كثيرين ، ومعجبين عديدين
كان من بينهم الأمير نفسه . إلا أن هذه الآمال كانت سرابا فلم يتحقق
شيء منها ، ولقد تشرف بمقابلة الأمير ، والتحدث إليه ذاكر له انتصاره
الفنى العظيم فى إيطاليا ، ونجاحه فى امتحان أكاديمية بولونيا ، ولكن ذلك
كله لم يجده عند الأمير نفعا ، بل كانت كل إجابته مقصورة على جملة
واحدة هى أنه « ليس لديه وظيفة خالية » وقد قالها بغير اهتمام ولا
اكتراث ، ولم تزد مدة تلك المقابلة على بضعة دقائق إذ كان الأمير النبيل
يتعجل الخروج للصيد ، وليس لديه متسع من الوقت يضيئه مع مثل
هذا الفنان ١١

تطلع (موتسارت) الشاب إلى بلاط مدينة (مانهايم) وكان
أميرها (كارل تيودور) معروفا بحبه للموسيقى ، وشفقه بها ، والعمل على
نهضتها ، وكان شديد الرغبة فى تأسيس أوبرا ألمانية ، وبعد رئيس فرقة
من أكبر رجال الموسيقى فى ألمانيا قاطبة ، كما أن أعضاءها نخبة طيبة من
مهرة المازفين

رحلت الأم وولدها إلى مدينة (مانهايم) هذه وكانت تلقب
إذ ذاك جنة الفن الموسيقى ، وقد أحيا فى طريقهما إليها بضعة حفلات لم
يصادف فيها نجاحا يذكر ، ذلك بأن (موتسارت) الفنان لم يعد طفلا
معجزا ، لذلك قد قلت حماسة استقبال الجماهير له ، وفتر تعلقهم بمشاهدته

بلغا مدينة (مانهايم) وسرعان ما تعرف (موتسارت) إلى فرقة
البلاط وأصبح صديقا لرئيسها وأعضائها ، إذ كان جميع هؤلاء يقدرون
عبقريته وفنه

ولقد وفق إلى مقابلة الأمير ، وكان لا يزال يذكر (فولفجانج)
الصغير حيث عزف أمامه وهو في السادسة من عمره ، ولا يزال معجبا بما
سمعه منه . ولقد أبدى موتسارت رغبته للأمير في أن يلحن أوبرا خاصة
لبلاط (مانهايم) فكان كل ما أجابه الأمير به أنه «سينظر في الأمر»
ولئن كان هذا الجواب غير قاطع ، لقد خرج (موتسارت) من
حاضرة الأمير ممتلئ النفس بالأمل وظل ينتظر ، وينتظر ، ولسكن علي
غير جدوى ، ولم يحظ بأن يجيبه الأمير إلى ما طلب

وانتظرت الأم مع ولدها في مدينة (مانهايم) ولما لم يكن لهما
فيها معين فقد اجتهد أصدقاؤهما في توفير أسباب الراحة لها ، وتهئية أمر
معيشتهما بها ، فأواهما أحد هؤلاء في داره دون مقابل وتبرع لهما آخر
بالغذاء ، وعاونهما رئيس فرقة البلاط بإمداد موتسارت بتلاميذ صغار
يقوم على تعليمهم ، ومنحه رجل هولندي مئة مئيل خمسة عشر جنيا
نظير تأليف موسيقية بسيطة قام بتلحينها له

هكذا انقضت الأيام في انتظار جواب الأمير وكان أكبر منقص
لموتسارت فيها اضطرابه للقيام بالتعليم حتى كان كثيرا ما يردد جملة

المشهوره «تبا لمهنة التدريس»... يرددها كلما صادفه تلميذ بليد الفهم تختلط عليه في العزف أزمنة العلامات الموسيقية من ذات السن أو ذات السنين أو يعزف صوتا بدل آخر . ولقد كتب إلى والده في هذا المعنى يقول: «لقد خلقت لأكون ملحنًا وقائد فرقة . لهذا فإني لا أستطيع أن أقبر موهبتي التي منحها لي الخالق العظيم بثراء وسعة ، لا أستطيع أن أقبرها بمزاويتي مهنة التدريس . إن تلحين الأوبرا شيء أحسنه في دمي ولحي ولأني أفضل الأوبرا الفرنسية على الألمانية ، والإيطالية عليهما معا» وكان جواب الوالد على رسالة ابنه أن «بادر بالرحلة إلى باريس ولا تجالس غير العظماء فمجالسة العظماء تظهر عظمتك»

وهذا ما كان يفكر فيه أيضا «موتسارت» الصغير فقد كانت فكرة الرحيل إلى باريس تجول بخاطره ولم يقعه عن تنفيذه غير انتظار جواب الأمير وطعمه في أن يجد له وظيفة في فرقة البلاط

ولم يطل أمد الانتظار بعد ذلك إذ وقع حادث كان فيه القول الفصل في هذا الموضوع ذلك بأنه في يوم ٣٠ ديسمبر توفي الأمير مقاطعة بافاريا وكان الأمير (كارل تيودور) الوارث الشرعي لعرشه فأُسرع في الانتقال إلى (ميونخ) ليكون أميرا لتلك المقاطعة ، وساء جمهور (مانهايم) أن يتخلى عنهم أميرهم ، مفضلا إمارة بافاريا على إمارتهم ، وقضى على آمال (موتسارت) الصغير فخاب رجاءه في البلاد الألمانية

ولم يكد الريم يستهل حتى كان الشاب (موتسارت) قد أعد العدة
للرحلة إلى باريس فبلغها ووالدته في ١٣ من مارس سنة ١٧٧٨ حيث كان
الكثير من ذكريات الطفولة الجميلة لا يزال عالقا بذهنه
استقبله صديقه القديم، النبيل (جریم) وكان قد ارتقى في منصبه
فصار وزرا مفوضا تغلب عليه نزعة الأرستقراطية وصلفها، كما أحسن
كثير من أصدقائه استقباله وبالغوا في الحفاوة به ولكن موتسارت الشاب
كان يحس أن استقباله الآن، وقد أصبح فنانا ناضجا، وموسيقيارا مبدعا
أقل بكثير من استقباله أيام كان فنانا صغيرا، وطفلا معجزا. بل أن الكثير
من الناس لم يتذكروا إطلاقا، فكانت مقابلة باريس له أقل مما كان يتوقعه
بكثير. وهذا شأن المسنن الكبرى، الدولية الحركة، فهي دائما سريعة
النسيان، وبخاصة مدينة كمدينة باريس، وبلاط كبلات فرساي
اجتهد البارون «جریم» في أن يقدم الشاب «موتسارت» لطائفة
الأرستقراطيين، والأوساط الموسيقية ولقد أعطاه كتاب توصية
للنبيلة «سابو» وهي إحدى أميرات الأسرة الملكية، وكانت شديدة
الاعجاب بفولفجانج أيام طفولته، غير أنها لم تتنازل بالترخيص له في
شرف المقابلة إلا بعد ثمانية أيام، وعند ما حضر إلى قصرها تركته في
غرفة الانتظار أكثر من نصف ساعة، وكانت غرفة شديدة البرودة غير
مدفأة. ولما أقبلت تبدت في صلف وكبرياء شديدين، ولم تنبسط معه

في الحديث ، بل أشارت بإصبعها إلى قطعة من الأثاث ملقاة في إحدى زوايا الغرفة، هي بيانو قديم ، وقد طلبت إليه أن يعزف به لأن البيانوات الأخرى غير مضبوطة

لم يسم « موتسارت » وقد ساءت هذه المقابلة إلا أن يعتذر من عدم استطاعته العزف بالنسبة لبرودة المكان وتجمد أصابعه ، فوافقته النبيلة على اعتذاره ، ووقف الأمر عند هذا الحد . ودخل زوجها النبيل « شابو » فسأه معاملة زوجته « لموتسارت » وبالغ في إكرامه بغية إصلاح ما أفسدته . ولكن هذه الزيارة لم يكن لها على أي حال أثر منتج فقد ظل « موتسارت » بعد ذلك لا يسمع شيئاً عن البلاط.

وبدأ الفنان الشاب يرى باريس بعين غير التي كان ينظر بها في طفولته فقد أحس كأنما كل شيء فيها قد تغير ، فأصبح أهلها في نظره أقل ظرفاً مما كانوا عليه قبل خمسة عشر عاماً ، بل أصبح يعتقد أن الشعب الفرنسي لا يستطيع فهم الموسيقى الجيدة . وإن ذلك ليتضح جلياً من رسالة كتبها للوالد يقول :

« لو أني وجدت هنا مكاناً صالحاً ، وطائفة من الناس ذوي قلوب ومشاعر وإدراك للموسيقى الجيدة ولو قليل لهاذا على الأمر ، ولكنني وسط جمع من الحيوان ، وما الفارق بينهم وبينه ؟ لهم فعلاً كالحيوان في جميع تصرفاتهم ، ولأنني لم أر في العالم بلداً بهذا الحال مثل باريس ، ولا

تحسبن يا والدى أننى أبالغ فى الأمر إنما ذلك هو حال الموسيقى هنا
ويمكنك أن تسأل أى شخص — لا يكون فرنسى المولد — فسيؤكد
لك هذا الرأى . ولكنى هنا ، وعلى أن أتحمل ، وأن أصبر من أجلك .
وأنا أشكر الله إذا قدر لى أن أخرج من هذا البلد بذوق سليم ، كما أدعو
الله فى كل يوم أن يلهمنى الصبر وأن يوفقنى فى عملى فيجمعله مشرفا لى
ولأمتى الألمانية ، وأن يوفقنى لكافأتك على ما أسديته لى من فضل ، وما
سببته لك من متاعب ، وأن يجمعنا فى القريب نستمتع بالحياة السعيدة معا ،
وهنا أيضا ، فى باريس ، اضطر الشاب موتسارت إلى أن يعاون
نفسه على مطالب الحياة بإعطاء الدروس الخصوصية . ولقد لحن كثيرا
من القطع لأحدى صالات الموسيقى ، وكانت أرقى صالة فى باريس ،
ولكن لم يعلن عن اسمه فى قطعة واحدة منها ، ولحن لها قطعة (سنفونى)
ولكنها لم تعزف إطلاقا ، وكان سبب كل ذلك شدة الكراهية ، وعظيم
الحقد ، على هذا الفنان الأجنبى الصغير . وكان شأن باريس فى ذلك شأن
(فينا) و (ميلانو) من قبل . وبلغ الأمر فى مناهضة الفرنسيين له أنه لم
يستطع الحصول على موضوع شعرى يقوم بتلحينه (أوبرا فرنسية)
وهو الغرض الأساسى الذى حفزه للرحلة إلى باريس . بل لقد أصبح
صديقه البارون « جريم » يمتد فيه مجزه عن إرضاء الذوق الباريسى ، حتى
لقد صارح هذا البارون الوالد موتسارت كتابة بذلك

وكان من أسباب فشل الشاب موتسارت وعدم توفيقه في باريس
أنه كان فنانا متواضعا لا يعرف الملق ، ولا السعى وراء مصلحته . وكان
عبقريا عظيما ، ولكنه لم يعرف كيف يستغل مواهبه وكيف يظهرها في
البلاد الفرنسية ليكسب بها الجمهور الفرنسي الذي ظل لا يقدر فنه ولا يفهمه
ولم يكن هذا الذي صادفه موتسارت من البؤس ، والخيبة والفشل

في باريس هو كل ما خبأته له الأيام في تلك الرحلة المشثومة
بل خبأ له الدهر ما هو أمر وأقسى ، وأعد له أكبر صدمة يتلقاها
المرء في حياته ، ذلك أن قد مرضت والدته في مايو مرضا شديدا أسلمت
فيه الروح بين ذراعي ولدها في ٣ يولييه ، وبذلك أحاط بالفنان في هذه
الرحلة جميع عوامل البؤس : من فقر ، وخيبة ، ويتم

وأعظم المصيبة لم يقو موتسارت على الكتابة لوالده بهذا النبأ المفجع
إنما كتب إلى صديق له في زالتسبورج ، يرجوه إبلاغ أمر هذه الفاجعة إلى
الوالد المسكين على أن يكون في تبليغه رؤوفاً رقيقاً . وكتب هو بعد ذلك
إلى والده يصف المرض وفجعة الموت وصفا مسهباً

أسودت باريس في عينيه بعد هذه الصدمة واطلمت الدنيا في وجهه
وتضاعفت كراهيته لها وأصبح لا يطيق الصبر على البقاء فيها فاعترم
الرحيل منها . ولكن إلى أين ؟ الجواب على هذا جواب غير منتظر ،
هو العودة إلى (زالتسبورج) ، ذلك بأن الرئيس الأول لفرقة أميرها

المطران قد توفي كما توفي عازف الأرغن بها . وكان المطران قد أحس
بعض الندم على تفريطه في عبقرية كعبقرية موتسارت الصغير وتضييعها
باغفال أمرها . لذلك قد عرض عليه شغل المنصبين معا في فرقته بمرتبة
قدره خمسة عشر جنيتها شهريا على أن يرخص له كل سنتين في عمل رحلة
يقوم فيها بإذاعة شهرته في العالم

تردد موتسارت الصغير ، بادی الرأي ، في قبول هذه
الوظيفة لأنه كان لا يزال يحس سوء معاملة المطران له ولأبيه ، حتى
لقد كرهه وكره (زالتسبورج) من أجله . ومن يضمن له تغيير هذه
المعاملة ؟ وربما تغيرت إلى أسوأ . إنه ليرتجى لو أتيحت له فرصة العمل
في بلد آخر ، وتحت سلطة أمير آخر ! وأن يجتمع في هذا البلد بوالده
وشقيقته ليعيشوا معا عيشة هنيئة هادئة

ورغبة في تحقيق هذه الأمنية حاول في أثناء عودته إلى ألمانيا أن
يجد له وظيفة في بلاط « ميونخ » أو « مانهايم » ولكنه لم يوفق
لأن لم يبق أمامه إلا (زالتسبورج) وأميرها المطران ، فليعد إليهما
وأمره إلى الله .

كانت هذه خاتمة رحلته الطويلة وثماره التي حناها منها
عاد إلى (زالتسبورج) مكسورا الخاطر ، مهيبا الجناح وحيدا بمد
أن أودع أعز الناس إليه أرضا غريبة أجنبية .

مجدوذة

استمر الشاب « موتسارت » عامين كاملين نزاول وظيفته في بلاط
الأمير المطران رئيسا لفرقة الموسيقى ، وعازفا بالأرغن في الكنيسة دون
أن يبرح مدينة « زالتسبورج » إطلاقا
وطرأ على فنه في هذه الفترة تغيير كبير ، فلقد تخلص ذوقه من
الأساليب الدائعة الاستعمال في عصره ، كما تخلص من قيود الصنعة ،
وحرية التأليف مما يحد من حرية الفنان وسلطته الروحية
ومن ذلك الوقت بدأت شخصيته تظهر في تواليفه ، وتجلي نتاجه
الموسيقى الخالد على الأيام وانفسحت له صحف التاريخ وبوأتها الصدارة
بن أساطين المؤلفين « الكلاسيك » الذين كانت مؤلفاتهم وما زالت
موضع الإعجاب في كل عصر وزمن
تلقى الفنان الشاب خطابا من « ميونخ » يحمل شارة البلاط ، وما
كاد يفضيه ، وبقف على ما فيه حتى تهلل وجهه فرحا وبشرا ، ولما كان
والده إلى جانبه فقد سلمه الخطاب ليطلع عليه بنفسه .
قرأ الوالد الرسالة ، وعرف مضمونها :
« ان سمو الأمير « كارل تيودور » أمير بافاريا يكلف الشاب
« موتسارت » تلحين أوبرا كبيرة لمدينة « ميونخ » خاصة بمهرجان

كرنقال سنة ١٧٨١ هـ

— هذا شماع نور سماوى

كذلك قال الوالد فى غبطة وسرور ، ولكنه سرعان ما تبهم وجهه
وتقطب جبينه ، ثم استطرد يقول :

— ولكننى أخشى أن يقف الأمير المطران فى طريقك فيحرمك
الإجازة اللازمة

فقال ولده فى حزم وعزم :

— هذا ما لا يستطيعه ، فإن الأمير « كارل » ليؤاخذه أشد
المؤاخذة إننا هو رفض طلبه . على أن شاعر بلاطنا ، هو الذى سيقوم
بنظم قصة الأوبرا . وعلى كل حال فإننى لا أستطيع ، يا أبتاه ، أن أضيق
تلك الفرصة التى كنت أنتظر تحقيقها من أمد بعيد ، وهى توفيقى إلى
تلحين أوبرا كبيرة بمدينة « ميونخ » . وسأقوم بذلك مهما كلفنى الأمر
وفى الواقع ، لم تكن هناك فرصة للمجد والشهرة خيرا من تقديم
نتاج لأوبرا « ميونخ » ، فلقد بلغت فرقته الموسيقية فى عهد الأمير
« كارل تيودور » مبلغا عظيما لم تطمح إليه فرقة أخرى بأوربا إطلاقا
كما أن المغنين والمغنيات فى تلك الفرقة كانوا يعدون من أسطع نجوم
ذلك العصر

أتم الشاعر وضع القصة ونظمها ، وكان أساس فكرتها أسطورة

يونانية قديمة — وأسمائها « ايدو مينوس ملك كريد » وجعلها ذات
ثلاثة فصول

عرض نظم الأوبرا على الشاب موتسارت فأعجب به أعجابا
لإعجاب ، وسر كثيرا بموضوعها ، إذ كانت تتدرج دائما في قوة الدراما
من منظر إلى منظر ، ومن فصل إلى فصل ، واحتوت كثيرا من المشاعر
البشرية ، ووصف مظاهر الطبيعة من زجرة العواصف ، وقصف الرعد
كان يقرأ النظم فتتحول كلماته في رأسه ألقانا ، وتنقلب مواقفه إلى
موسيقى تصويرية . لقد اندمج في أوبراد وأصبح لا يعيش إلا فيها
وكان الشاب « موتسارت » قد سمع في باريس أوبرات الموسيقار
الألماني « جلولك »^(١) فأعجب بأسلوب تأليفه اللحن ، وبخاصة في
أوبراه « ليفيجينيا » وكان أسلوب التلحين الإيطالي في الأوبرا إنما يعنى
في الأهم بناحية التطريب الموسيقى ، وإرضاء حاسة السمع فكانت السيطرة
للطرب أما مطابقة الموسيقى لمعاني الشعر ومسيرة الألقان لمواقف
القصة فذلك أمر ثانوى ، لذلك لم يكن الملحن ليهتم بأن تكون ألقانه
معبرة عن معاني الشعر ، وأصبحت الأوبرا الإيطالية تتاجا غير طبيعي
لمجرد إظهار مهارة المغنى أو المغنية

لهذا فقد حاول الموسيقار « جلولك » أن يتحلل في تأليف ألقان

(١) راجع ترجمته في العدد ٥٦ من المجلة الموسيقية

أوبراه من هذا الأسلوب الإيطالي ، ورغب في أن يكون مقيدا بمعاني
الشعر يعبر عن حقيقة المواقف ويكشف بموسيقاه عن أسرار القصة ، ولم
يجعل المكان الأول في تأليفه لإظهار مهارة المغنى في استعمال حنجرتة
وكان « موتسارت » أول موسيقار ألماني اعتنق مذهب « جلوك »
وتبعه في روايته الجديدة « إيدومنيوس » التي استطاع أن يتحلى فيها
من الأسلوب الإيطالي تحللا تاما

لم يبق الآن إلا تذليل صعوبة ترخيص الأمير المطران له بالإجازة
اللازمة وبعد بذل الجهد في ذلك رخص له بأجازة لا تتجاوز ستة أساييم
سافر « موتسارت » الصغير إلى عاصمة « بافاريا » . وأخذ يكثف في
عمله ليلا ونهارا . فلما انتهى من الفصلين الأول والثاني عمل لهما تجربة
نالت رضا جميع مستمعيها . وأيقن هو بنجاح أوبراه . أما طائفة المغنين
والمغنيات ومن شاهدوا هذه التجربة من أهل الفن ، فقد بلغ من إعجابهم
بالتلميع أن اعتقدوا استحالة إيجاد موسيقى أقوى من ذلك للفصل
الثالث ، أما الفنان الشاب فكان واثقا من نفسه يعرف تماما أنه سيبلغ
الذروة في هذا الفصل ، إذ كانت جميع موسيقاه معدة في رأسه

وفي الصباح المبكر من أحد الأيام أطفأ « موتسارت » المصباح
الذي سهر على ضوئه ، وألقى القلم من يده وهو يقول :
« انتهيت ، وفي هذا مسك الختام »

وكانت تجربة عامة في قصر الأمير ، أجمع الكل فيها على أن هذه الأوبرا خير نتاج أظهره هذا الفنان وأنها أحسن أوبرا ظهرت حتى الآن على الإطلاق

ولقد حضر هذه التجربة الأمير نفسه وطائفة من حاشيته الأرستقراطية فأضفى على الفنان عاطر الثناء وذكر له أنه لم يبلغ تأثره بألحان ما ما بلغه من التأثير بموسيقاه القوية

أصبحت هذه الأوبرا موضع حديث المجتمعات في «ميونخ» وصار فنان «زالسبورج» الشاب موضع حديث الناس في كل مكان ، وانتظر الجميع بفارغ الصبر يوم ٢٩ يناير سنة ١٧٨١ وهو اليوم الذي تحدد لظهور الأوبرا

امتلات جميع مقاعد الدار قبل موعد الابتداء بساعة كاملة ، وارتد مئات الناس دون الحصول على تذاكر الدخول ولم تشهد «ميونخ» ازدحام تلك الدار مثل هذه الليلة

وحدث بالقاعة ما لفت نظر الجميع ، ذلك أن أعضاء الفرقة الموسيقية قد وقفوا فجأة ، يحيون في احترام زائد رجلا مسنا أشيب دخل عليهم حيث كانوا يجلسون وبصحبه فتاة . لقد أجلسهما الفنان في أحد أركان الفرقة وجرى حوار في الصالة بين الجمهور :

— من عسى أن يكون هذان الشخصان اللذان يبالغ «موتسارت»

في احترامهما ؟

— انظر اليه ، إنه يقبل يد الرجل المسن الأشيب

وسرعان ما عرف الجمهور أن هذين الزأرين هما الوالد « موتسارت » وابنته « ماريانا » الموسيقارة المشهورة

لقد حضر الوالد وابنته ليشهدا أوبرا « فولفجانج » وكان حضور الوالد دون ترخيص من الأمير المطران فهو متغيب عن « زالتسبورج » من بضعة أسابيع في مدينة « فينا » لمناسبة وفاة القيصرة « ماري تريزا » كان الجمهور المحتشد بالدار يمثل مختلف الطبقات . وإذ دخل الأمير مقصورته فقد انسابت النغمات ، وبدأت المقدمة وانبعثت الألحان الآلية نسبق حوادث الرواية فتترجم عنها وتستعرضها قبل فتح الستار . وقد امتزج رقيق ألحانها بتصوير الطبيعة العنيفة فمثلت الموسيقى أعاصير العاصفة أجمل تصوير حمل الأمير علي أن يعطى بنفسه إشارة الاستحسان وارتفعت الموسيقى تدريجاً من موقف إلى موقف ، ومن فصل إلى فصل حتي بلغت الذروة . ونزلت الستار فدوت القاعة بعاصفة من التهليل ، وارتفعت الأصوات تنادى :

« موتسارت ! موتسارت ! »

واضطر الفنان الشاب للظهور أمام الجمهور عدة مرات والجمهور متعلق به لا يرغب مفارقتة وقد سحر منه السمع والقلب معا

وإذا انصرف القوم، وخلت الدار، وأطفئت الأنوار إلا بضم
مصاييح في ركن من أركان الفرقة الموسيقية كانت نضىء فوق الوالد
« موتسارت » الذي ظل جالسا ترعد جميع أعضائه جسمه من تأثير هذا
الذي رآه من تكريم ولده لفجاح نتاجه

أقبل الفنان على والده، وتعانق الاثنان في صمت رهيب لم يلفظ
أحدهم فيه بكلمة، إنما ترجمت دموعهما عما كان يحول بخاطرهما.
وقد وقفت « ماريانا » إلى جانبهما تنظر إليها حائرة وأقبلت كبيرة
المغنيات تضم إكليلا من الزهر فوق رأس « موتسارت » وإذا بالوالد
يهمس في أذن ولده يقول :
أي « فولفجانج » كم كنت أتمنى لو أن والدتك العزيزة شاهدت
نجاحك الليلة !

عاد الوالد « موتسارت » وابنته « ماريانا » إلى زالتسبورج . أما
« موتسارت » الصغير ، فقد تخلف في « ميونخ » ليستريح قليلا من
عناء عمله المضني الذي قام به ، وليستمع فيها ببقية حفلات مهرجان
الكرنفال

كان الأمير « هيروني موس » مطران « زالتسبورج » يقيم في ذلك
الوقت في (فينا) وقد اعتزم أن ينتهز الفرصة ويقضى بها بضعة عشر

يوما يتجرد فيها من عبء الحكم وتقاليد السلطان ويتحلل فيها من قيد
الوظيفة وتكاليفها .

وفي صبيحة أحد الأيام أخذ المطران الأمير يتمشى في حجرة
أعماله . هو رجل طويل القامة ، ذو عينين نجلاوين يشعان ببريق الجد
والحزم ، مهيب المنظر ، لا يستطيع من يراه مرة أن ينسى هيئته ووقاره .
حسن الإلقاء في صلف ، لا يسمح لمرءوسيه أن يتقربوا إليه ، أو يقتربوا
منه ، فأضمر واه الحقد والكراهية

كان يعتبر الموسيقى شيئا كماليا في إمارته ، حتى لقد كانت تحذره
نفسه أن يطرد الموسيقيين أو أن يقذف بهم إلى الجحيم ، لولا أنه لا يخلو
منهم بلاط في أوربا ، وأن البلاط الديني لأشد حاجة للموسيقى من البلاط
المدني إتماما للشعائر الدينية ، وما كان في مقدوره أن يشذ عن التقاليد
المتبعة

والآن تهجس في المطران خواطره : ما الذي يصنعه هؤلاء الأنهار
الموسيقيون في غيبته ؟ أولئك قوم مستهترون لا ينقطعون عن الشراب ،
يقضون يومهم في السكر ، فلعلهم الآن يتنقلون من حانة إلى حانة ، حتى
يطوفوا بحانات (زالتسبورج) مترنحين ، فان هذه الشرذمة برغم معاملتها
بالشدة غاية الشدة وأخذها بالعنف أبلغ العنف لم تنته عن معصية ، أو
تنقطع عن مفسدة

كذلك كانت تسول المطران نفسه ، وكذلك كانت ينتجى في صدره فقرر استحضارهم جميعا إلى فينا على عجل وظل يناجى نفسه قائلا : « ماذا بهم إن كان أفراد الفرقة ورئيسها في إجازة الآن ؟ ذلك الشاب الماهر سأكتب له في البريد القادم أستدعيه ليوافينا إلى فينا سريعا فقد استوفى هذا الشاب حظه من الكسل والبلادة

إنه لا شك عبقرى ، ولكنه عنيد . لماذا لا يعود إلى وطنه ؟ أراه يلتمس دائما تجديد إجازته ، وي بذل مجهوده وفنه لغير أهله وبلاده فلا يتسع وقته لأميته ووطنه . وإذن فلا بد من استدعائه ، لا لأمهده له سبيل الشهرة وإذاعة الصيت في « فينا » مدينة القيصريّة ولكن ليكون في خدمتي وطوع أمري »

كان صباح اليوم السادس عشر من مارس سنة ١٧٨١ م مشرقا بهجا ، صفا سماؤه ، ونقيت زرقته ، فاستقبله الناس بالبشر والتهليل وأقبلت عربة البريد تنهادي في مرورها بضواحي فينا ثم تخفف السير وهي تعبر بوابتها .

لم يكن السفر في هذه العربة مريحاً على التحقيق فقد كان المسافرون لتعبهم يشجرون لتافه الأمر ، ويصخبون لأحققر الأشياء ، وهم يجهلون أن بينهم « موتسارت » الشاب ، ويتصايحون كلما ارتجت العربة ، وتزلزلت من مرورها على الأحجار ، فيضغط الركاب بعضهم

على بعض ، فتضطرب أجسامهم و ترتج أدمغتهم ، ويسارع بعضهم إلى
نافذة العربدة لتعجل الوصول ويتبين الموقف

وصلت العربدة أخيرا إلى ميدان (ستيفان) في الساعة التاسعة
صباحا ، فاندفع « موتسارت » من ذلك المركب العتيق وأعضاء جسمه
تتوجع كلها من طول السفر ومشقة

وقف المارة المتسكعون في الطرقات يشاهدون القادمين ويتغامزون
عليهم ، وهي فرصة خلقت لهم موضوعا جديدا يشغلون فيه ألسنتهم ،
وأفانين أدمغتهم

أمام باب القصر ألقى « موتسارت » عصاه واستقرت به النوى
فتلقاه البواب ساخرا يقول :

— هيه يا سيد (موتسارت) اقرب جئت في آخر لحظة ، قبل
فوات الوقت . انه في انتظارك فوق . يترقب مقدمك بفارغ الصبر .
لقد سبقك رجال الحاشية . هم جميعا هنا من ثلاثة أيام . أسرع وبادر
بالصعود الى الطابق العلوى

ارتقى (موتسارت) السلم قفزا حتى دخل البهو ، ويظهر أن طول
غييبته أنساه المتبع من التقاليد فقد رغب في دخول حجرة الاستقبال
دون استئذان لولا أن (أنجل بارو) جذبه من طرف رداءه وزجره
قائلا :

— لا تعجل فما تفيدك العجلة شيئاً . وانتظر حتى يأتي دورك وأعلن
خبر قدومك

جلس (مونتسارت) يتميز من الغيظ ، وينتقل من مقعد إلى مقعد ،
وكذلك عاد (مونتسارت) إلى قيود الخدمة ، وسلاسل الوظيفة ، بعد
أن استمرراً لذة الحرية في « إيطاليا » و « باريس » و « ميونخ » فنانا
مبدعاً يفعل ما يشاء . لهذا فقد جلس طوال وقته يعرض الزواج ويصر
على أسنانه كأنه يتلع دواء مرا

جاء دوره فناداه « أنجل باور » فنهض مسرعاً ودخل حجرة
الاستقبال بقلب محقق اضطراباً

هنالك كان المطرن يتبوأ عرشه في ردائه القرمزي ، رداء الكرادلة ،
ويده فوق صدره والشمس تملأ الرحب بأشعتها الذهبية فتلوح ثياب
المطران كأنها في أتون من اللهب ويتلأأ في صدره صليب المطارنة وتشم
من أحجاره الكريمة أضواء تمثل جميع ألوان قوس قزح

بهرت (مونتسارت) هيبة المطران وأبهته فانحنى إلى الأرض صامتاً
وساد سكون رهيب لم يدم طويلاً فقد رن صوت المطران في حدة
يقول لمونتسارت : اقرب . فتقدم مونتسارت خطوات صاح به المطران :
قف . فوقف الموسيقار ينتظر ما يتلقاه من الخطاب والجماعة

صوب المطران إليه بريق عينيهِ فتمنى (مونتسارت) لو تبتمعه

الأرض ولا يتلقى سهام تلك النظرات القاسية المليئة بالخطاة والامتهان .

انقضت لحظة رهيبه كاد « موتسارت » يموت من هولها

— هل أنت رئيس فرقتنا الموسيقية ؟

أأنت فولفجانج أماديوس موتسارت ؟

وجه المطران إليه الخطاب في إنكار كأنه لا يعرفه ، فأجابه الفتى

موتسارت في شيء من الشمم :

— نعم أنا موتسارت

— كدت لا أعرفك من طول اغترابك وبعادك ، أهكذا تظل

بعيدا عن سيدك بعيد الدار نائي المزار تلهو وتمرح فارغ البال كسلان

مربدا

غلى الدم في رأس موتسارت واشرباب يبصره إلى المطران يفحصه

بأشعة عينيه الجذابتين وقال :

— عفو يا سيدي . فما الفراغ ، ولا الكسل ، ولا العربة من طبعي

ولا هي من خلقي . أعتقد يا مولاي أنني ما أضعت لحظة من إجازتي عبثا

— أسمى ما تأتيه من الألعاب الموسيقية عملا وشغلا ؟ إن اخوانك

الموسيقين جميعا الذين استدعيتهم الى هنا لبوا على جناح السرعة ، وأطاعوا

أمرى وجاءوا مسرعين ، ومضوا هنا ثلاثة أيام . واليوم فقط تجيء أنت

فكيف استبعت لنفسك هذا التأخير ، وارتكبت هذا التقصير ؟

— يا صاحب الإمارة العالية إن مواعيل البريد لميؤنخ تأخرت
لتراكم الثلج، فتعذر على الوصول في الأوان، كان الثلج ياسيدي مخيفا مرعبا



الأمير مطران زالتسبورج

— حجة فارغة —

وأراد موتسارت أن يجيب ، ولكن المطران قاطعه قائلا :

— لا عذر ، أعرفك مدى حياتك خبيثا ، كذوبا ، مستهترا ،

ثم استوى على ساقيه وصاح :

— سأنتقم منك ، وستكفر عما جنت يداك

— الأمر لك يا صاحب الإمارة العالية

وانتهى الحديث فأشار المطران بيده الى الباب فخرج الموسيقار الشاب

خرج موتسارت يترنح كمن أصيب بحجر في رأسه وقصد في التو

الى الحجرة الصغيرة التي خصصت له . ارمنى علي مقعد ، واندرح عليه

هنالك ، يكاد يكون مغشيا عليه

يا للهول ! أهذا هو (موتسارت) الذي دوى العالم باسمه ، وهتفت

له إيطاليا ، وفرنسا وبافاريا ؟ أهذا هو موتسارت الذي حملته الأيدي

والأكتاف ؟ أهذا هو موتسارت الذي يتلف العالم على رؤيته ، والذي

ينزل من قلب الدنيا منزلة لم يسبقه اليها أحد ؟

وى ! وى ! يا إرادة السماء أين المعدلة ؟ أهكذا يخضع الأتباع الى

متبوعهم ، فيتحكمون في أجسامهم وأفكارهم ومشاعرهم !!

أي زمن هذا البشم الذي يجعل أقدار الباقرة وذوى الجهود

الجبارة تحت رحمة مثل هذا الأمير المتصلف ؟

ليس لنفس أئمة أن تعيش في هذا الجو الموبوء بجهالة الفطرسية إنما
يسكن إلى هذا العيش نفوس الأذلاء العبايد. أيقف موتسارت بأبواب
الردهات وجدران الحجرات يحى من يريد، ومن لا يريد، ثم لا يخطو
خطوة أو يتحرك حركة إلا إذا صدر له الأمر؟ موتسارت، ذلك الرجل
الفنان العبقري الذى يصـاخـه خارج بلاده الملوك والأمراء معاينة
الصديق المحبوب، يقف بباب أميره ذليلاً كسير القباب مهيض الجناح؟
سحت عينا موتسارت، وفاضت بالدسم مقلتاد وخر جاثيا يصيح:
— ما هذه الحياة المزعجة؟ وما هذا العيش المرير؟ ثم أجهش فى البكاء
فى هذه اللحظة قرع جرس البواب فى الطابق السفلى مؤذنا بدنو
وقت تناول الطعام وكان على الموسيقار العبقري أن يتناول طعامه مع الخدم
جلس موتسارت يسائل نفسه أينزل إلى مائدة الخدم، يشاطرهم
الأكل، ويساهم فى طعامهم؟ أم يعف أنفة، ولو بلغ به الأمر إلى الصيام
كان الحكم للمعدة فأصدرته قاسيا مؤلما، فإنه لم يذق طعاما طوال
يومه، وقد استنفد السفر نقوده جميعها فلم يبق معه إلا دريهمات لا تغنى
من جوع. ولو أن المطران صرف له المتأخر من مرتبه لاستطاع أن
يجتنب مقعده المزرى من مائدة الخدم، ولكنه لم يقبض منه إلا الخشونة
والأزدراء

إذن فلا بد من الذهاب إلى مائدة الخدم. هلم إليها ..

كفاح نفسي

في مساء اليوم الذي وصل فيه « موتسارت » إلى « فينا » حيث
قابل أميره المطران ، أقام المطران في قصره حفلة موسيقية
كان أصحاب المجد والشرف من الضيوف مجتمعين في بهو التشريفات
وسمو المطران يستقبلهم بما فطر عليه من الجلال والعظمة . ولقد يدهش
المتصلون به من أن هذا الرجل الموشح بوشاح الجلال والهيبة والوقار
يسف أحيانا إلى منزلة السوق والرعاع من أبناء شعبه

وقف الناس فرقا ، كل جماعة في ناحية ، والمطران ينتقل بينهم يبالغ
في تحييتهم وإكرامهم ، ويعرف بعضهم إلى بعض ويبادر إلى استقبال من
تأخر منهم ، إلى غير ذلك من أسباب الجملة واللياقة في مثل هذه الحفلات
وفي هذا الوقت وقف « موتسارت » على المسرح يتحدث إلى
« سيكاريلي » وهو مطرب إيطالي سيغنى الحفل بصوت نسائي . هنالك
أقبل المطران في صلب وغطرسة وأشار إلى موتسارت « ابتدىء »
فتأهب الموسيقيون وانطلقوا يعزفون وتقدم (سيكاريلي) يغنى بصوته
الناعم النسوي و (موتسارت) يدق البيانو مماشيا مع غنائه والحفل ضجر
متبرم يهزأ من هذا الرجل القوي المتين يتخنت بصوت النساء ولا يخزي
فتغامزوا عليه وصدرت من بعضهم عبارات التهكم وغطى السيدات أفواههن

بناديلهن إخفاء للضحك الذي ملا أشداقهن . وفي هذه الجلبة النفسية
الجائشة كان توقيع موتسارت على البيانو آية في الدهشة والإعجاب ،
ولو أنه كان يدق ارتجالاً بغير نوتة حتى إنه لفت الجمهور اليه ونال
أكبارهم وارتياحهم

لحظ المطران ما وصل اليه الموقف من الخزي والسخرية وكاد
بصمق نولا أن تماسك وفكر في علاج ينقذ الموقف فصاح بأعلى صوته
« برافوا سيكاريلي برافو » ثم صفق وأسرف في التصفيق . ما هذا
الصوت الذي يدوي في القاعة كالرعد فتجاوبه أصوات المحتشدين بما كاد
يزلزل أركانها ؟

ذلك صوت الأمير (شوارتسبورج) يهتف عالياً « برافو أستاذ
موتسارت برافو » فيرده الحفل ترديداً عالياً

صاقت الدنيا بالمطران واضطربت حواسه وتملكه الهياج لولا بقية
من الوقار أسكتت ثأثرته وألانت حديثه . فاندفع الى فرقة الموسيقى ،
وأشار اليها بعينيه أن تنصرف فشرع أفراد الفرقة يلمون شعثهم ويجمعون
أمتعتهم استعداداً للخروج . ولكن السيدة النبيلة (تون) تقدمت الى
المطران في خفر وحياء وتوسلت اليه في ابتسامة فائنة تقول :

— هل يتفضل صاحب النيافة المطرانية فيصدر أمره الكريم الى
موتسارت فيوقع لنا قطعة من موسيقاه الساحرة ؟ لأنني باسم نبلاء هذا

الحفل الكريم أتمس منك إجابة هذا الرجاء لنتمتع أرواحنا ونسقيها سلسبيل
فنه الفياض الذي يروى الأرواح ويحيي الأشباح

— سيدتي النبيلة ، من كل قلبي أستجيب لك ، ولا أرد لك طلبا ،
لكن الفنان « موتسارت » وصل اليوم متأخرا ، وأظن أنه غير مستعد
— يا مولاي الأمير ، « موتسارت » دائما مستعد ، فإنه من البراعة
بحيث يستطيع أن يخلق في الموسيقى متى شاء ، وأنى شاء ، فاسمح لي أن
ألح مرة أخرى في هذا الطلب

وقد عزز رجاءها جماعة النبلاء ، واحتشدوا حول المطران يركون
الطلب ، وكما أبدى عذرا فندوه ، حتى أرغم ، إزاء إلحاحهم على أن
يستجيب لهم ، ولكن علي مضض ، فذهب إلى « موتسارت » يسأله :
— هل لديك قطعة صغيرة جاهزة ؟ قطعة مختصرة ؟ إسمع ، أنت
تعرف مقتي لمطولانك . تكلم !

— عندي قطعة (روندليتو) ، صغيرة ، أعددتها خصيصا لهذه الحفلة
وأظن يا صاحب النيافة المطرانية أنها تتفق مع رغباتكم
— حسنا ، ابتدء . وأسرع ، وانه ، حتى نقوم .

استوى الحاضرون في مقاعدهم متوجهين إلى المسرح ، ونشط
« موتسارت » إلى العمل ، فأطلق الموسيقى بيانا ، وأسالها حنانا ، وأشجى
سامعها نغما ، وجلالها بينهم نغما ، وأثر بها في أذهانهم ، وامتلك مشاعرهم

وسيطر على أجسامهم، حتى كانوا يتموجون لمتوجاتها، ويقفزون لقفزاتها،
 ويتمهلون لتمهلها، ويتباعدون إذا ابتعدت، ويمتزجون إذا امتزجت،
 حتى إذا انتهى من قطعه قطع الناس أيديهم بالتصفيق، وحساجرهم
 بالهتاف والصياح بطلب الإعادة، و«موتسارت» صامت يترقب أمر
 المطران، والمطران معرض عنه، والتهليل، والهتاف، والصياح لا ينقطع
 فكان موقفا عجباً... عازفو الكمان يترقبون أمر أستاذهم، وأستاذهم
 يترقب أمر سيده، وسيده مفض عنه مثاقيل، والجمهور مصمم على
 الاستعادة مهما كلفه هذا التصميم من التضحية. ^١
 هنالك نقد صبر «موتسارت» فقفز إلى المطران يسأله في لهفة
 وخيرة:

— سيدي صاحب النياقة، أأسمحون بالإعادة؟
 فصاح به المطران: كيف تسأل هذا السؤال؟
 ففهم «موتسارت» من لهجة المطران الرضاء والقبول.
 وما كاد «موتسارت» ينتهي حتى التف به الضيوف، يجاهد كلهم
 أن يحظى بمصافحته، وأن يلتمسوا منه، في إلحاح وحرارة، أن يتقبل
 دعواتهم للغداء، والمشاء، وحفلات المساء، وهو يتوذد لهم جميعاً،
 ويشكر لهم جميل عطفهم، ورقة شعورهم، وعذوبة ألقاظهم، ويعتذر لهم
 عن إجابة دعواتهم، بما يضطر إليه اضطراراً من استئذان المطران

وسماحه ، فإنه سيده الأعلى

انصرف السادة المدعوون ، وجمع الموسيقيون آلاتهم ، وأتمعتهم ،
وغادر الكل هو الاحتفال ، إلا « موتسارت » ، فقد بقي منفردا . وقف
ينفوس في بحار الفكر ، يعلو حيناً إلى مناط السعادة ، ويهبط آنفاً إلى
مدب البؤس ، فإذا استبشر ، وحلّاه الأمل ، ناجى نفسه :
— بداية رائعة ، تبشر بالرفعة والسمو ، كل شئ فيها جميل ، إجماع على
الاعتراف بالفضل ، وهو أول أسس المظمة ، وطهارة في إعلان الثقة ،
وهي أولى دعائم النجاح . أحمدهم ، لقد عوصتني عن جحود الفرد
بر الجموع .

فإذا أحست نفسه البؤس لذكري المطران ، انتجى في صدره يقول :
— ويلي ! ماذا يملك ضيف الحيلة إذا بطشت به قوة الجبار ؟ هذا
أمير مسلط ، تفرعه شهرتي وتقض مضجعه سميتي ، فهو لا يفتأ يناوئني
ماواته قدرته ، وساعفته حيلته . أتى انجحت صدغي عقابه ، وحينما
سرت نزل بي عذابه . حتى إنه ليجلسني إلى مائدة الخدم أتناول طعامي
معهم وأغص بلقمانه .

أي ربّي : إليك أفوض أمري وأنت أحكم الحاكمين .
وهكذا كانت تدور برأس « موتسارت » هواجسه وتتشعب فيه
خيالاته

ويدنما كان « موتسارت » موزع الفكر ، تتنازعه الخواطر ، إذا
بحركة تشعر بقدم المطران منفص عيشه ، ومكدر صفوه ، حتى في لذية
أحلامه لا يفر من هجماته ، ولا ينجو من تمثاته .

أقبل المطران الأمير وصوب أقصى نظراته إلى فناء البهو حتى إذا
لمح « موتسارت » قصد إليه مندقما ، وحمقى في وجهه كأنما يريد إحراقه
بشعلة عينيه الملتهبتين . وجاهد « موتسارت » قواه ليرفع بصره إلى
المطران فلم يقو ، فأسبل عينيه . وسادت برهة رهيبة من السكون ، قطعها
المطران بحديث بطيء تشف كل نبرة من نبراته عن الحقد والفيظ :

— ما أزدلك أيها الملاحن ! كيف تجرؤ على مواجهة ضيوف النبلاء
فتحدث إليهم ! أبلغت بك الصفاقة هذا الحد ؟ ما الذي يصوره لك
خيالك ووهمك ؟ أنزعم أنك أصبحت من الشرف والنبالة بحيث يضم
الأشراف أيديهم في يدك الملوثة القذرة ؟ يا لسوء ما صوره لك تفكيرك
الفاسد ، وزعمك الباطل . ولكن لا عجب أن يتعلق الرعاع أمثالك بأعذاب
العظمة يتمحلونها تمحلا .

— يا صاحب الإمارة العالية أرجو عفوك وغفرائك إن السادة
هم الذين صاخفوني ومدوا إلى أيديهم وليس من المروءة في شيء أن أرد
أيديهم أو أتقاضى عنها .

— وقاحة مبتذلة ينثرها الولد الخبيث على سمعي . جنون يصوغه

هذا الحقير كلمات وعبرات ...
— يا صاحب الأدب العالى ، ما يليق هذا الأسلوب فى مخاطبة رجل
فنان ، جاب فنه « روما » و « باريس » و « لندن » و « فينا » وحلق
فى سمائها جميعا . . .

— فنان ؟ ، كان لى أن اضحك لولا أن موقفك محزن مزر . .
فنان ؟ أتدعو نفسك فنانا أيها الأمتعة المنكور ، إن أنت إلا محفور دنس
— قد يكون هذا رأى نيافتكم ولا حيلة لى فى اعتقادكم ولكن
يا صاحب الأدب العالى ، ما كان رأى نيافتكم فرضا يعتقدہ الناس ويدينون
له ، إن الناس قد عرفوا قدرى وأحسنوا التعبير عنه ، و . . .

— أخرس ، أيها الوقح ، أترفع صوتك فى وجهى ؟ ثم لا ينقطع
لسانك بين شديك ؟ سأريك كيف أخفت صوتك ، وأحو أترك . . .
ولكن من الذى أمرك أن تعيد تلك القطعة الموسيقية المزعجة التى سميتها
« روندليتو » ؟

— استأذنت نيافتكم فأذنت لى .

— استأذنت حقا ، ولكنى لم آذن لك . ولانى أعاقبك على ادعائك
حقا لا تملكه . ولا يليق أن تملكه . سأدفع لك هذه المرة ثلاث دوكلات
« عملة ذهبية قديمة » كباقى أفراد الفرقة الموسيقية . خذها ترن على الأرض
وتتدحرج تحت قدمى . . . وإذا توقفت ، أو سولت لك نفسك الشريرة

إساءة الأدب مرة أخرى ، فإنني أحرملك من مرتبك جميعه وأخضم
استحقاقك كله

ثم أدار المطران ظهره للفنان وانصرف في خطى متشدة فيها الكبرياء
والعظمة و « موتسارت » مبهوت مذهول يكاد يقتله الغضب أو يسوقه
إلى الإعدام وخيل إليه أن ينقض على هذا المطران فينتزع رأسه من
جذورها . ولكنه ما لبث أن سكنت نائرتة ، وهدأت أعصابه فإذا بطنه
يضط من الجوع وأمعائه تتلوى منه فجئى على ركبتيه يبحث عن الدوكلات
الذهبية الثلاث ، حتى يكون معه شيء من النقود على الأقل في أول يوم
من وصوله « فينا » إلى أن يحكم الله

كانت الموسيقى في ذلك الحين ، أكثر أنواع الفنون محبة في قلوب
جميع طبقات الشعب في فينا وكان للأمرءاء في بيوتهم فرق موسيقية
خاصة يرعونها ويسهرون عليها وكلما كان الأمير غنيا واسم الثراء كانت
فرقة الموسيقى آية في الكمال والإبداع . وكان بعض هؤلاء الأمرءاء
على شغفهم بالموسيقى ورعايتهم لها لا يحتلطون بأفراد الشعب من الطبقات
الوسطى ضنا بموسيقاهم عن كل أذن غير عالية . ولم يكن غير سيد الأمرءاء
وراعى الشعب — القيصر — من يسمح في الأعياد الرسمية السنوية بفتح
أبواب سرايه العامرة لكل فرد من أفراد رعيتة أميرا كان أو صعلوكا

فيستمتع الجميع ببر الملك ورحمة السلطان

كانت حفلات القيصر الموسيقية الشعبية قذى في عين بعض المتعطر سين
من النبلاء ، ولكن ما حيلتهم أمام إرادة القيصر صاحب الصولة والسيادة
العليا في الدولة ؟ ثم ماذا يفيد خنقهم والقيصر في هذا صلب الرأي حديد
العزم ؟ اللهم لا شيء إلا أن يحتمل النبلاء على مضض وإلا أن يكظموا
الغيظ مجاملة ونفاقا ، وكان أكثر ما يغيظ النبلاء أن يساوى القيصر بينهم
ويين المال وأرباب الحرف ، وأن يوزع حبه ورعايته عليهم جميعا
لا ميزة لأمير على حقير . وكان القيصر على الأخص لا يمنح الأمراء
الدينيين من الرعاية والبشاشة ما يمنحه أهل الطبقات الأخرى . ذلك
بأنه كان يعتقد أنهم أكثر الناس بلادة وكسلا ، لذلك كان فريق الأمراء
الدينيين أكبر عدو ظاهر للقيصرية

ولقد كان مطران « زالتسبورج » غصة في حلق القيصر لا يسيفه
ولا يقبل عليه وكانت أخبار ذلك المطران تصل إلى عامه فيغص لها .
ولكن سلطانه ما كان يمتد إلى سلطان وقف (زالتسبورج) وإذن فكان
يكتفى بأن يظهر للمطران عدم رضائه عنه فكانت رقاع الدعوات إلى
الحفلات التي يحييها المطران تهمل ولا يلتفت إليها ، وكان القيصر يتعمد
عدم دعوة المطران إلى حفلات البلاط

وكان المطران يعلم ذلك جيدا ويقصر همه على صد الطعنات التي

كان يتلقاها من القيصر وأن يحاول أن يصوب إلى القيصر طعنات ترد
عاديته فكان ينتهر فرصة إقامته بفينا في كل سنة بضعة أشهر ويتظاهر
بالألم والعظمة محاولاً أن يبرز في عظمته جلال البلاط ووقار الحاشية

ولشدة غطرسته وكبريائه التي لا حد لها وصفافته الغريبة كان
لا يستطيع أن يتبين أن محاولته تلك كانت موضع السخرية والاستهزاء
وأن تنقلاته المعقدة بين المدينة وضواحيها في عربات الخفلات الرسمية
الحكومية الموشاة بالذهب ، أصبحت مبتذلة يستنكرها الناس ويتخذونها
وسيلة للضحك والامتهان . إنما كانت الفرقة الموسيقية في بلاطه هي
وحدها التي يستطيع أن يفاخر بها ويكأثر بها القيصر وأكابر أهل فيينا
جميعاً . وما كان له في هذا فضل ولا جميل وإنما يرجع الفضل في
تأليف هذا الفرقة وتدعيمها بموسيقيين من الطراز الأول إلى المطران
السابق الذي خلفه هذا المطران على الإمارة فقد كان يدقق في اختيارهم
ويرسم سير حياتهم ويطبق عليهم شروط الجدارة التي يتحتم توافرها في
فرقة الإمارة ويدخلهم في الوقف متى استأهلوا رضا الفنى ، كأسرة
« موتسارت »

ولقد أصبح (موتسارت) الشاب رئيساً لتلك الفرقة ولكنه غدا
أيضاً نابتة لا يشق له غبار وعبقرياً لم يظفر العالم بمثله
ولئن كان في خدمة القيصر الموسيقار « بنو » و « سالييرى » وهما

من فناني الطبقة الأولى إلا أنهما كانا إلى جانب « موتسارت » نقطة
من بحر لا يغنيان قتيلا . وأني لهما أن يسار ما اكتسباه غريزة الموهوب !!
لقد كان « موتسارت » آية أعجز الله بها أهل عصره وأظهر به
معجزة من معجزاته الفنية التي بهرت العصر ، وسحرت الفكر ، وخلدت
للموسيقى بقاء الذكر .

ولقد استغل المطران هذه المعجزة وراح يتباهى بها فخورا ، ولكنه
لم يفخر بمواهب « موتسارت » وعبقريته ، وابتكاره وتفننه ، فإن شخص
« موتسارت » لم يكن في حسابه ولا مما يفكر فيه ، وإنما الذي كان يعنيه
أنه كان من خدمه وأن الأمراء والنبلاء يثنون عليه ويمتدحونه كرئيس
لفرقته الموسيقية ، وسواء أكان الرئيس الممدوح « موتسارت » أم غيره
فإن الذي كان يفخر له ، وتنتفع به أوداجه إنما هو الثناء الموجه إلى
رئيس الفرقة أيا كان . وكما أغرق الأمراء والنبلاء والوجهاء في الثناء
عليه جرت الخيلاء إلى الشعور بأنه « قيصر المدينة الصغيرة » ولا يليق
بمقامه السامي أن يهتم بخادمه الموسيقي ، وكان يتخذ من مديح القوم في
الفرقة وسيلة يعلن بها على الملأ كبرياء مطران « زالتسبورج » وأمير
مقاطعتها ، وما يحاط به من العزة والظفر

لم يكن يستحي من ذلك أو يخزي له ، ولم يرد أن يفهم أنه مدين
لفرقته الموسيقية بما بلغ من الشهرة وبخاصة في الأوساط الموسيقية في

(فينا)، بل كان لفتحته وسوء خلقه يتباهى بأنه تفضل فأكسب الفرقه
الشرف بقبول رجالها في خدمته . وأي شرف أكبر من أن يكونوا
من أتباعه وخدمه ؟ أليسوا مربوطين على الوقف تصرف لهم رواتب
شهرية ؟ أليست الرواتب تصرف محاصيل زراعية لا دنانير قيصرية ؟
الحق إن ذلك الشيطان كان يقبض عليهم يد من القولاذ، ويتصرف
في أعمارهم بقاء، أو فناء، فقد كان يتعاقد معهم طوال حياتهم وإذن فقد
كان يتعذر أن يفسخ عقد بائناذار أو أن يتخلص موسيقار وفاق إرادته .
أما « موتسارت » فقد كان بالنسبة للمطران حرا بعض الشيء ذلك
بأنه كان موظفا يتقاضى مرتبا نقديا وله في عقده حق الإئناذار وييده
نسخة مكنوبة من العقد . ولكن هل كان المطران يأبه لشيء من هذا أو
يعيره التفاتا ؟ كلا بل كان يغلظ في معاملة « موتسارت » غلظته في
معاملة سائس الخيل وحارس الاسطبل سواء بسواء . وهكذا كان ديدن
أمراء ذلك العهد فقد كان من طبعهم أن يسوموا موظفيهم المهانة
والازدراء .

تألم « موتسارت » لذلك ، وعرض الألم شغاف قلبه واستنجدته
حرية السجينة المغلوله أن أطلقني وحل عقالي تدو في الدنيا روائعك
الفنية وتخلق فيها مبتكرانك . فكان يستنفد الصبر في ترقب ذلك اليوم
الذي يحطم فيه قيد العبودية ويكسر أغلالها، وله في موهبته الفنية خير

صديق . غير أن « موتسارت » كان دائما مترددا يجرى وراء عاطفة
خفية ترسم فيها صورة أبيه البر الرحيم الذي يتفانى « موتسارت » في
حبه والتفديس له فكان يخل إليه أن خطوة واحدة يخطوها نحو الحرية
تقصي والده عن مركزه وتنحيه عن وظيفته وتقضي على سمعته التي
تمودها ، بل ليس ببعيد أن ينتقم المطران من الأب تشفيا من الابن .

ولكن غطرسة المطران وعجرفته بلغت حدا لا يطاق ، بل ويستحيل
احتماله . وإذن فقد وجب التبصر في الأمر . وكثر التشاور بين الولد
وأبيه لعلهما يهتديان إلى وسيلة تزيح عنهما تلك النعمة . غير أن الوالد كان
في كل مكاتباته يلتمس حسن النية في أعمال المطران وينسب تصرفاته
النفسية إلى طبيعة نشأته واحتراسه من المفاسد التي جر إليها تهافت
سابقه ثم ينصح بمد ذلك إلى ولده ألا يتعجل الأمر ويتضرع إليه في
حنان أبوي أن يصبر ويخضع لإرادة الله ويتحمل تجرع القصة . والحق
إن أخوف ما كان يخافه الأب أن يشتد الضيق بالفنان فيتخذ سبيله إلى
الجبال والوديان هربا .

غير أن « موتسارت » تخرج من كؤوس الصبر ما غص به وشرق
به حلمه . فنبأ سمعه عن أن يصيخ لنصائح أبيه هذه فينا بأجمعها تقبل عليه
وتهتف له ، وكلما زاد تعلق الناس به وإشادتهم بذكره ، زادت غطرسة
المطران وصالفه ، فدفعت بنفس « موتسارت » إلى النفور والوحشة ،

وجذبته إلى مجاميع (فينا) يتنقل من جماعة لأخرى فيتلقاة أهلها بما يليق
به من عزاوة وإجلال

دارت الهواجس برأس « موتسارت » واذبحى يناجى نفسه : كل
شيء معقد . ماذا ؟ أأظن أتحمل تلك الشدة بكاملها ، وأتلقاها بأصبارها ،
ولا أبقى بفينا إلا حينما بقي بها المطران ، ولا أنجو يوما من عصف ذلك
الوحش الإنساني الذي يسومني الحسف والهوان حتى أصبحت لا أحس
إن كنت أنسيا يستحق العيش أم ساعة ترعى الكلاء ، وتطعم الحشائش ؟
أم أتححرر من ذلك الاستعباد وأنعم بتقدير شعب هذه المدينة ونبلائها ؟
يارب . أما لهذا التبلبل حد يستقر عليه ، اللهم إن هذه السعادة التي تتلقاني
هنا من مختلف النواحي ، حرام أن أفرط فيها أو أوليها ظهري .
« موتسارت » كن يقظا واهزأ بهذه العقاب

إذن فقد انفصل « موتسارت » عن خدمة الأمير المطران واضعاً
مستقبله وديعة بين يدي الله أرحم الراحمين

أوبرا خالدة

اعتزل « موتسارت » خدمة الأمير المطران ، فأقام بفينا في مسكن متواضع بمنزل، يطلق عليه اسم « ناطح السماء » ، وهو نفس الاسم الذي أطلق على الشارع القائم به ، وذلك لأنه كان يرتفع صعودا إلى درجة كبيرة . وما تحلل الفنان من استبداد أميره ، وقيود الوظيفة في فرقته حتى بدأ يشعر بحريته ويتجلى صفاء طبيعته في مؤلفاته وألحانه

ولقد كان من مرح أهل « فينا » وفي جمال ضواحيها الرائع ما ليس بعده مطعم لفنان . وكذلك كانت « فينا » مركزا عاما لأهم الموسيقيين ، وأساطين أعلام هذا الفن في أوروبا قاطبة . كان يعيش فيها وقتئذ الموسيقار الخالد « جاك » كما كان يتردد عليها من حين لآخر الموسيقار الأكبر « جوزيف هايدن » ، وكان لا يزال رئيسا لفرقة « الإمارة الاسترهازية » بمدينة « أيرنشتات »

أصبح على « موتسارت » أن يسعى لرزقه وتوفير كفافه فلم يكن بد من قيامه ، على كره منه ، بإعطاء دروس في البيانو تلك الكراهية التي تجلت في مدينتي « مانهايم » و « باريس » من قبل . وكذلك أخذ يقدم لتجار الموسيقى ، وناشري مطبوعاتها مؤلفاته الموسيقية ، وألحانه الخالدة ، نظير دراهم معدودة ، وأجر تافه . ولكن كان فيما يقوم به من

حفلات العزف بالبيانو في قصور أشراف « فينا » ونبلائها ما عوض
عليه هذا الغبن ، وأغدق عليه المال وفيرا

إذن كان دخل « موتسارت » لا بأس به ، وكان يمكن أن يزيد
على حاجته ، لولا أنه شاب أغرته ملاحى « فينا » وسحرته مباحج تلك
المدينة المرحية ، فكان ينفق أكثر مما يكسب ، ويظل في جميع حالاته
الفنان المعدم الفقير ، ولكنه كان برغم ذلك الفنان المتعلق بفنه ، فطالما
قضى الليل كله جالسا أمام آلة البيانو يعزف ويتدع غير منصرف إلا
لفنه الذى استحوز عليه وتملك مشاعره

وكان القيصر « جوزيف الثانى » مشغوبا بالموسيقى الإيطالية ،
يرعاها في بلاطه رغم اعتقاده أن الموسيقى ليست لمجرد اللهو والتسلية
بل إن لها لغرضا أسمى ، وغاية أشرف . كان يدرك أثرها العظيم في
تهذيب الشعب ، وثقافته وقوتها في استنهاض الهمم وشد العزائم ، وقد
حمله هذا التفكير على وجوب الانصراف عن الفن الإيطالى الذى غمر
بلاطه وأن يستعيز عن الأوبرات الإيطالية ذات مناظر الرقص
الباهظة التكاليف بتأسيس مسرح حكومى للشعب تمثل فيه أنواع
« الأوبريت » والأوبرات الهزلية التى يفهمها الشعب ويستمتع بها ،
ويتذوق معانيها . ولم يكن بالطبع في وسع الفنانين الإيطاليين الذين في
بلاطه تحقيق هذا الغرض ، فقد كان لا بد لتحقيقه من عبقرية موسيقية

لفنان وطني يجمع إلى مواهبه الفنية تغلغل الشعور الشعبي فيه . إذن لم يكن في جميع « فينا » غير موتسارت الذي يستطيع حمل هذا العبء ، وتحقيق هذا الغرض

كاف القيصر ، الفنان « موتسارت » تلحين أول أوبرا هزلية تمثل في المسرح الشعبي . وقدم إليه شعر هذه الرواية المسماة « بلمونت وكونستانسه » أو « الاختطاف من السراي » وهي من وضع « برتسندر » مدير المسرح الهزلي

طار « موتسارت » فرحاً بهذه الأوبرا الألمانية ، يقوم بها مغنون ومغنيات من الألمان . وكان هذا أقصى آماله وأحلى أمانيه

فلم يكذ يتسلم شعر الرواية حتى عكف منذ الليلة الأولى على دراستها وتفهم مواقفها وصياغة ألحانها بصفة عامة . وبدأت الألحان تجري في رأسه ، يصورها في فكره . وكان « موتسارت » سريعاً في كل شيء ، سريعاً في حركته ، سريعاً في أكله وشربه ، سريعاً في كلامه ، سريعاً في لباسه ، فلا عجب أن نراه الآن سريعاً في إنجاز روايته . كان يستيقظ في الصباح الباكر وهو مشغول باللحن ، فإذا ذهب إلى الحمام فكر فيه ونغم ، وإن وقف في غرفته يخلق لحيته ، ترك رغوة الصابون تعلو وجهه وسار في الحجرة جيئة وريجة يلحن وينغم ، فإذا أعجزه التنغم بصوته نقر بأصابعه على قبعته ، أو جزء من جسمه ، أو على المنضدة أو المقعد

كأنما يعزف بآلة البيانو ، وما يكاد اللحن الذي يبتدعه يستقر في فكره
حتى ينسجم في رأسه نغمات متوافقة يؤديها الغناء بمسيرة جميع آلات
فرقة الكبيرة . فإذا استقر ذلك في فكره أسرع إلى تدوينه وإثباته على
القرطاص

وكان « موتسارت » ينظر إلى تلحين تلك الأوبرا نظرة وطنية
سامية إذ كان يعتقد أنه يعمل عملاً قومياً بهذا الخلق الجديد ، وإن العناية
الأممية قد اختارته لتحقيق هذا العمل الذي ستنصر به الموسيقى الألمانية
على الموسيقى الإيطالية ، فكان هذا دافعه على بذل أقصى الجهد في
التلحين وحافظه على إتقانه وتجويده

وكان هناك دافع آخر يسوقه إلى هذا الإتقان والتجويد ، بل
ولمى سرعة إنجاز هذا التلحين ، ذلك هو أمله في الاقتران بحبيبته
« كونستانسه » . ومن أعاجيب المقادير أن يلهم مؤلف الرواية فيسمى
بطلتها هذا الاسم الذي كان أحب الأسماء إلى قلب « موتسارت » .
وكانت « كونستانسه » محبوبه الفنان الشاب ابنة لأحد الكتبة الموظفين
تعرف إليها في مدينة « مانهيم » حيث كان يتردد فيها على أسرتهما ، إذ
كانت شقيقتهما إحدى مغنيات مسارحها . وإذا انتقلت الشقيقة المغنية إلى
مسرح « ميونخ » ثم إلى مسارح « فينا » وقد كانت هي عائلة أسرتهما
بعد وفاة والدها كان لزاماً على تلك الأسرة أن تنتقل معها فتقيم بفيينا

كان « موتسارت » شديد التعلق بكوستانسه ، كثير الوله بها ،
وكان أقصى آماله الاقتران بها ، ولكن والده كان يرفض الترخيص له



كوستانسه

في ذلك لعدم عمله في وظيفة ثابتة أو وجود
إيراد ثابت يضمن حياته الزوجية .
كذلك كان رأى والده « كوستانسه »
فقد كانت تعارض في هذا الزواج لنفس
هذه الأسباب

لذلك كان (موتسارت) يؤمل أن

يكون نجاحه في هذه الأوبرا الجديدة ضميماً

له في التغلب على هذه العقبات المادية ، فيتمكن من تذليلها ويقترن بمن يحب
كانت هذه أحلام حلوه تجري في رأس (موتسارت) أثناء تلحينه
لهذه الأوبرا التي وهب نفسه للعمل فيها
فصرفته عن العالم ولم تدع له مجالاً للانتفات
إلى ما حوله .



سالييري

فقد كانت تحاك حوله في الخفاء
دسائس وتوضيع العراقل في طريقه ، يقوم
بها الفنانون الإيطاليون ومن ينتمي إليهم

في بلاط القيصر، وعلى رأسهم جميعا الموسيقار الإيطالي «سالييري»
رئيس فرقة البلاط برغم ما كان يتظاهر به لموتسارت من صداقة وإخلاص
كان «سالييري» موسيقيا بارعا، وفنانا موهوبا، نشيطا منتجا،
قد يكون ذا قلب طيب ليس من طبعه إلا ساءة والشر ولكن ما حيلته هو
وأبناء قومه الموسيقيون الإيطاليون الموجودون في بلاط القيصر، ما حيلة
هؤلاء جميعا أمام هذه العبقرية الفنية الجبارة التي تأتي إلا أن تنسج على
شهرتهم خيوط النسيان وتلقى نتائجهم في زوايا الإهمال؟

لقد حاول «سالييري» قبل أن يصدر القيصر أمره للفنان موتسارت
بتلحين تلك الأوبرا أن يصرف القيصر عن هذا الرأي وأن يقتنعه بالعدول
عنه ولكنه فشل، وإذن فلم يبق أمامه هو وشيعته إلا أن يعملوا على عرقلة
ظهورها على المسرح فبدلوا في هذه السبيل أقصى جهدهم ولكن القيصر
تمسك بضرورة التمجيل بظهورها فظهرت في يوم ١٢ يولية
سنة ١٧٨٢

استقبل الجمهور هذه الأوبرا الجديدة استقبالا باهرا، حتى لقد
استعيد الكثير من مقطوعاتها غير مرة، وشد ما تجلت رغبة الجمهور في
ألا تنتهي هذه الموسيقى الساحرة حتى يظل ساجدا في نعماتها الحلوة
إذن كان نجاح «موتسارت» عظيما وفوزه قاهرا، وكان هذا النجاح
قذى في عيون الشيعة المعارضة التي لم يقمدها هذا النصر عن الاستمرار

في مضاعفة مجهودها لحبك الدسائس ، ووضع العراقيل أمام هذه المسرحية حتى لقد ائتمروا بها مع بعض المغنين والمغنيات ليقتلوها عند إخراجها للمرة الثانية فتلاعبوا بألحانها أثناء الأداء ففشل الفصل الأول . ولكن برغم هذا كله فقد تجلى صدق القولة الحكيمة (إن الحقيقة لا بد أن تنتصر لأنها تستطيع الانتظار) فقد كتب الله لهذه الأوبرا النجاح برغم ما حيك حولها من الدسائس وما وضع في طريقها من العقبات بل لقد بلغ من نجاح هذه الرواية الخالدة أن تكرر تمثيلها من شهر يولية حتى نهاية ذلك العام ست عشرة مرة في مدينة (فينا) وحدها . وقد أصابت مثل هذا النجاح في (هامبورج) و (ليبزج) وغيرهما من كبرى المدن الألمانية التي استقبلتها استقبالا باهرا ونجحت فيها نجاحا عظيما

كتب الفوز لتلك الأوبرا الخالدة حتى لقد استدعى القيصر الفنان « موتسارت » وأثنى عليه مظهره إعجابه بموسيقاه وكان سرور « موتسارت » بذلك شديدا ، لا لنجاحه الفني فحسب ، ولكن لتيسير زواجه « بكونستانسه » فقد سمحت لهما والدتها بذلك ، أما الوالد « موتسارت » فقد رخص لهما أيضا فيه ولكن على الرغم منه ، ذلك بأنه كان يعتقد أن الحب لا يكفي وحده للسعادة الزوجية ، وأن ولده وزوجه كلاهما معدم حتى كان يشبههما في فقرهما بفأر الكنيسة . وما مدى استقرار حياة زوجية تبني على رحمة الشعب في رضائه وغضبه ، وتأرجح بين

نجاح نتاج الفنان وفشله ، ولما يحصل حتى الآن على وظيفة ثابتة ؟ إذن كان من الجنون أن يقدم « موتسارت » على فعلته ، لهذا كان الوالد في داخلته غير مطمئن لهذا الزواج ، ولو أنه رخص به فتم في ٤ أغسطس سنة ١٧٨٢ ولما يمض على ظهور أوبراه ثلاثة أسابيع .

وكان « موتسارت » ككل فنان عبقرى ، لا يعبأ كثيراً بالمادة . كان مرحاً بطبعه ، فإذا عرض له ما ينغصه فسرعان ما تجده في اللحظة التالية مرحاً منشرح الصدر . وبلغ من زهده في المال أن كان يقوم بتأليف الكثير من الألحان لأصدقائه ومعارفه من الفنانين دون مقابل ، كذلك كان يستقبل في منزله مهرة الموسيقيين الغرباء الذين تعوزهم المادة ، فيقتسم معهم مسكنه ومطعمه وماله ، ويلحن لهم ، ويقدم لهم الحفلات دون مقابل وقد عرف الكثير من هؤلاء كيف يستغلون هذا الفنان الطيب القلب استغلالاً ينبو عنه الخلق الفاضل

وكانت « كونستانسه » شديدة الحب لزوجها ، طيبة القلب خيرة بطبيعته عليمه بأخلاقه وعاداته ، فبسطت له في حياته الزوجية بساط السعادة قدر ما تسمح به حالهما ، وحاولت أن تسيطر عليه في حياته فكانت تنجح حيناً ، وتفشل أحياناً

وتغلبت على « موتسارت » عادة العمل بالليل ، وبالغ فيهما ، فكان كلما شعر بهدوء الليل وسكونه استيقظ فأضاء مصباحه وظل وحده

يعمل ويتدع في الألمان حتى الصباح . كانت هذه عادة تمدها
« كوستانس » عادة قبيحة ، وقد حاولت عبثا أن تصرف زوجها عنها
محافظة علي صحته ، ذلك بأن « موتسارت » وقد عجز عن استغلال
أوبراه الجديدة استغلالا ماديا فقد ظل فقيرا معدما ، وكان عليه لتحصيل
قوته أن ينصرف في الصباح المبكر إلى تلاميذه واحدا واحدا يعلمهم
العزف بآلة البيانو ، ولم يكن هذا بالعمل اليسير في مدينة كبيرة كفينا
وزادت فاقة « موتسارت » وضائق به السبل ، فإن أعداءه وفي
مقدمتهم « سالييري » قد نجحوا نجاحا كبيرا في صرف القيصر عن فكرته في
إحياء الفن القومي والعودة به إلى الفن الإيطالي ، وبذلك لم يعد أمام
« موتسارت » لكسب عيشه إلا سبيل العزف بالبيانو وقد تخلى له عنها
معارضوه إذ لم يكن من بينهم من يدعى أن يجاريه فيها وليس عليهم في
قيامه بها من ضرر

وبلغت من مناهضة « سالييري » للفنان « موتسارت » أنه لم يترك
له فرصة لظهور ألحانه إطلاقا ، حتى ولو كانت إيطالية الأسلوب . ولقد
لحن « موتسارت » لأحد أصدقائه من المغنين مقطوعة يغنيها منفردا في
إحدى الأوبرات الإيطالية فلم يسمع « سالييري » بذلك
اشتدت الفاقة بموتسارت حتى تعمس عليه في كثير من الأيام وجود
القوت ، وإن كان قد أخرج للناس في ذلك الوقت خير مؤلفاته ، فقد

ابتدع وقتئذ الست الرباعيات الوترية الخالدة التي أهداها لأستاذه الموسيقار
الأعظم « جوزيف هايدن » الذي كان يباده المحبة والاحترام ، وكان
هايدن هو الفنان الوحيد الذي خلا قلبه من الحقد على « موتسارت »
فكان يعلن تقديره لفنه في كل فرصة يسمع فيها ألحانه ، وفي كل مكان
يتاح له لإبداء الرأي فيه . ومن ماثور قوله كلمته الصادقة للوالد
« موتسارت » وقد زار فيينا في ربيع عام ١٧٨٥ « إنني أصارحك ،
وأشهد الله على قلبي ، إن ابنك أكبر ملحن عرفته أو سمعت به ، له
ذوق ممتاز وموهبة معجزة في التأليف »

وكان الشاب « موتسارت » يود أن يحتفظ بوالده فيقيم معه في
فيينا . كذلك كانت رغبة زوجته « كونستانسه » سيما وقد أصبح الشيخ
وحيدا في زالتسبورج بعد أن تزوجت ابنته ماريانا وبعدت عنه في جهة
أخرى . ولكن الوالد « موتسارت » وإن كان قد أثلج صدره مارأى
من الوفاق والمحبة بين ولده وزوجه ، وفرح بحفيده الصغير الذي لم يتجاوز
الستة شهور ، إلا أنه فضل البقاء في زالتسبورج على وحشتها إذ رأى
الحياة مع ولده غير مضمونة

وكان الوالد على حق ، فقد انتقلت حال « موتسارت » في (فيينا)
من سيء إلى أسوأ حتى كان يقصد ناشري مؤلفاته يقترض منهم
النذر من المال وقد ترك زوجته وولده في الدار وليس عندهما ما يقتاتان به .

أوبرا « زواج الفيجارو »

كان المنزل الذى تقيم فيه أسرة « موتسارت » بفيننا ملكا للبارون « ولتسار » الذى كان ذا ثقافة عالية ، وشخصية ممتازة ، شغوفا بالموسيقى إلى درجة كبيرة . وقد وجه هذا النبيل نظر الفنان « موتسارت » إلى رواية هزلية صادفت فى « باريس » نجاحا منقطع النظير ، تلك هى رواية « زواج الفيجارو » للكاتب الفرنسى الذائع الصيت « بومارشيه »

قرأ « موتسارت » هذه الرواية فأعجب بها ووجد فيها خير ما يمكن أن يقوم بتلحينه أوبرا هزلية

وقد كان لنفوذ البارون « ولتسار » ما جعل « أبات دى بونت » شاعر البلاط القيصرى يقوم بنظم هذه الرواية شعرا للأوبرا ، وكان صادق الخبرة فى هذا العمل واسع الدراية به

كان « موتسارت » والشاعر « بونت » على وفاق تام ، توثقت بينهما روابط الصداقة ، واعتزما لإنجاز هذه الأوبرا فى تكتم شديد حتى لا يشعر بهما « سالييرى » وشيعته من أعداء « موتسارت » العاملين على إحباط أعماله ، فيقضى على الوليد ولم يزل جنينا

فلما انتهيا من الأوبرا نظما ، وتلحيننا ، كان لزاما على الشاعر (بونت) أن يعرض الأمر على القيصر ، فوضع الرواية بين يديه ، فأعجب بها أيما

إعجاب ، وسر بديم نظمها سرورا كبيرا . إلا أنه لم يرقه أن تكون
موسيقاها من تأليف « موتسارت » ، فلئن كان (موتسارت) قد نجح
حقا في أوبراه الأخيرة (الاختطاف من السراي) نجاحا باهرا ، لقد
كانت تلك الأوبرا أغنيات شعبية ، أما هذه الإيطالية النظم فرنسية التأليف
أفما كان الأجدر بتلحينها (سالييري) أو أحد أعوانه ؟ . ولكن القيصر
رأى ألا يتعجل حتى يطلع على الموسيقى فاستدعى إليه موتسارت وأخذ
يعرض معه ألحان الأوبرا واحدا واحدا . وإذا كان القيصر واسع المعرفة
في تفهم هذا الفن فقد أعجب بالموسيقى إعجابا كبيرا جملة يصدر أمره
إلى النبيل (روزنبرج) مدير المسرح بسرعة دراسة هذه الأوبرا
وإخراجها . وإذا كان هذا النبيل نفسه من أعداء موتسارت فقد غص
بهذا الأمر ، ولكن ما حيلته وقد أصدر القيصر أمره ؟ إذن فلا أقل من
وضع العراقل أمام (موتسارت) في تجارب هذه الأوبرا

كان الفصل الثالث يشتمل على حفلة زفاف ، وكان عماد هذا الفصل
حفلة راقصة كبرى ، فكان من غير المعقول أن يظهر هذا الفصل خلوا من
هذه الحفلة . ولكن مدير المسرح رأى حذف هذه الحفلة الراقصة بحجة
أن القيصر سبق أن أظهر رغبته السامية بصفة عامة بحذف جميع مناظر
الرقص من الأوبرات بالنسبة لما تتكلفه من باهظ النفقات . أحس
موتسارت ما يدبر حوله من مكيدة ورأى أن القوم لا غاية لهم إلا

لإحباط أوبرا، فنار لفته وبلغ به الأمر أن تشاجر مع المخرج، وهو من
الشيعة المعارضة

وكان من حسن طالع موتسارت أن حضر القيصر آخر تجربة
للأوبرا، فلحظ بنفسه وجود ثغرة في الفصل الثالث سببها حذف منظر
الحفلة الراقصة التي يجب أن يحتويها، فلما استطلع الأمر عرف من
موتسارت، ما كان من أمر الحذف الذي سبب بتر هذا الفصل، فأصدر
القيصر أمره للنيل (روزنبرج) بإخراج هذا المنظر غاية ما يكون من
الأبهة والفخامة

وكتب الله لتلك الأوبرا الخالدة «زواج الفيجارو» أن تظهر على
المسرح كاملة فخمة في أول مايو سنة ١٧٨٦

ازدحم المسرح بالجمهور الذي استقبل ألحان هذه الأوبرا استقبالا
رائعا فكان يملو هتافه في نهاية كل لحن طالبا لإعادة فاستعيدت أكثر
ألحانها غير مرة حتى استغرقت الأوبرا في تلك الليلة ضعف الوقت المقرر
لها. لقد جمعت هذه الأوبرا حقا جميع محاسن فن الأوبرا الإيطالي والفرنسي
متشحة بحسن ذوق الفنان موتسارت، ولقد خلع على الرواية حلو الفكاهة
الفرنسية ثوبا من المرح واحتوت موسيقاها تعبيراً عميقاً وذوقاً سليماً فكانت
ذات أثر كبير في تحريك المشاعر وسحر النفوس

وهكذا أتبع لفينا الحصول مرة أخرى على أوبرا خالدة يحق لها أن

تفخر بها . ولقد غزت ألمانها كل قلب وتقدت إلى كل فرد
الآن وقد تحقق أعداء « موتسارت » الخطر الدائم الذي تهددهم به
هذه العبقرية الجبارة فقد ضاعفوا مجهودهم في مناوأة هذه الأوبرا حتى
حرموا أهل « فينا » من إعادة سماعهم إياها إلا أندر ما يكون . ولما
كان مدير المسرح نفسه من هذه المصابة فقد كان تنفيذ ذلك مضمونا
ميسورا ..

ضائق الدنيا في وجه « موتسارت » وأصبح لا يجد لفنه في « فينا »
مجالا ، ولا لا يتاجه نجاحا مهما جود فيه ، وبلغ به الضيق أن فكر في
الرحيل إلى إنجلترا أو فرنسا وقد كتب إلى والده وقتئذ يقول :
« عزيزي الوالد . إذا كانت ألمانيا ، بلادي ، التي أنخر بالانتساب
إليها ، لا تريد الاحتفاظ بي ، فاني لا أجد مفرا من المهاجرة منها ، والرحلة
إلى فرنسا أو إنجلترا فأمنعها فنانا ألمانيا ماهرا . ولأنه لمن العار أن يكون
هذا هو الحال دائما في الشعب الألماني ، فقد كان التفوق دائما في جميع
الفنون لعبارة من الألمان ، ولكن أين أصابوا حظهم وأين بنوا مجدهم ؟
لم يصيبوه ولم يبنوه داخل البلاد الألمانية ولا ريب »

كان لموتسارت صديق يقيم في مدينة « براج » يدعى « دوشيك »
وهو موسيقى ماهر ، اختاره « بونديني » مدير مسرح الأوبرا بهذه
المدينة رسولا إلى « فينا » لمشاهدة أوبرا « زواج الفيجارو » وإخطاره

برأيه فيها فلما أعجب الرسول بتلك الأوبرا إعجاباً هز مشاعره كتب
الله لها أن تبعث من قبرها في « فينا » لتحيا في مدينة « براج » وتبقى
خالدة على الأيام .

وفي يناير سنة ١٧٨٧ رحل « موتسارت » وزوجه « كونستانسه »
إلى « براج » تحقيقاً لرغبة أهلها في مشاهدتهم له يقود الفرقة في أوبرا
التي نجحت في تلك المدينة نجاحاً جعل الألسن تردد ألحانها في كل مكان
والثناء عليها في جميع المجالس والمنتديات ، بل لقد انتقلت مقطوعاتها إلى
المراقص العامة وأخذ الشعب يرقص فيها على ألحان « زواج الفيجارو »
فزادها شهرة وبعداً في الصيت

ما كاد الجمهور يلمح « موتسارت » داخلاً إلى مسرح الأوبرا ليقود
فرقتها حتى نهض واقفاً على بكرة أبيه يحيي الفنان بهتافات عالية ونداءات
كلها تبجيل واحترام

فلما انتهت الأوبرا لم يدع الجمهور الفنان « موتسارت » يفلت من
أيديهم بل اضطروه للجلوس إلى آلة البيانو يوقع عليها منفرداً ألحاناً مرتجلة
مبتكرة كان يخلقها في ابتداع مدهش . ولقد بلغ من حماس الشعب أن استعادوا
ألحانه المرتجلة مرات بعد مرات ، وكان الفنان في عزفه يترجم عن خواج
فكره وخيئته نفسه فكانت الألحان تعبر تارة عن حزن عميق سرعان
ما ينقلب إلى مرح ومسرة . وإذا كان الفنان يرتجل حلول النغمات والجمهور

يستمتع اليه في صمت عميق ، إذا بصوت يرتفع من الصالة « نريد زواج
الفيجارو » وإذا بالفنان ينتقل في ارتجاله دفعة واحدة ، وفي انسجام
عجيب ، يصور ألحان الفيجارو ، وينتقل فيها من فكرة إلى فكرة حتى
جاء عليها جميعا ، وانتهى بالعودة إلى الفكرة الأولى منها ، والجمهور سابع
في نشوة من الطرب ، وغيبوبة من سحر الألحان

كانت هذه الليلة بمثابة التتويج الفني لموتسارت وقبلة انفجرت في
جميع مقاطعة بوهيميا ، فقد راح الشعب يشيد بذكر هذا الفنان الموهوب
المعجز ، وقوة ألحانه ، وبديع موسيقاه . وبلغ من حماس أهل « براج »
لأوبرا « زواج الفيجارو » أن ظلت تمثل بتلك المدينة دون انقطاع طوال
فصل الشتاء ، وقد ساعد على نجاحها المهارة الفائقة لفرقة الأوبرا التي
كان يديرها « بونديني » غناء وعزفا وإخراجا حتى نالت من « موتسارت »
رضاءه التام

وأعجب « موتسارت » بأهل « براج » إعجابا كبيرا جعله يفضلهم
على جميع جماهير البلدان التي تنقل فيها ، حتى قال :
« مادام أهل « براج » يفهموني جيدا فسألحن من أجلهم أوبرا
خاصة بهم » . قال « موتسارت » ذلك لبونديني وهو يغادر « براج »
عائدا إلى « فينا » ولم يكن لموتسارت أن يبهج « بونديني » بأكثر من
هذا الخبر الذي طار له فرحا إذ لاشك في أن أوبرا جديدة ، يقوم بتأليفها

مؤلف « زواج الفيجارو » تكون له ثروة كبيرة وكنزاً ثميناً
وإذن فقد تعاقد « بونديني » مع « موتسارت » على هذا العمل الجديد
على أن تنتهي تلك الأوبرا في خريف ذلك العام
عاد « موتسارت » إلى فيينا ، واستأنف عمله الشاق فيها بإعطائه
دروساً في البيانو لكسب عيشه وتوفير قوته اليومي وكانت مؤلفاته تدر
إيراداً لا يذكر ، ذلك بأن عازفيها كانوا يتداولون نسخها الواحد من الآخر
دون أن يدفعوا في سبيلها درهما واحداً حتى لقد أبى أن يدون مقطوعات
« الكونسرت » الخاصة بالبيانو ليتمكن من الاحتفاظ بها لنفسه فلا يتعدى
عليه فيها سواه

أما الأوبرات فقد كان الأجر المقدر لها عادة مبلغاً لا يزيد على
الأربعين جنيناً للواحدة وهو ما كان يتقاضاه موتسارت عن أوبراته الخالدة.
من أجل هذا كان يعيش في شظف من العيش وقلة من المال
وأبت الأيام إلا أن تزيد في آلامه وتضاعفه بؤسه فورد إليه من
« زالتسبورج » ما ينبي عن شدة مرض والده ثم وفاته في ٢٨ مايو سنة ١٧٨٦

زيارة مفاجئة

جلس « موتسارت » وحيدا حزينا موزع الفكر مشئت البال
وإذا بالخدام تناديه :

— سيدى ، سيدى ، لقد كررت النداء لك ، فما بالك لا تجيب ؟

— قد أكون مشغول الفكر ، مشئت البال ، قولى ما وراءك ؟

فقدمت اليه الخدام رقعة صغيرة مكتوب عليها بحروف واضحة :

لورنسيج فانه بيترهوفن

عازف الأرغن بمدينة بون

— لانه من أراضى نهر الرين الجميلة . . . دعيه يدخل

وما كادت الخدام تخرج حتى دخل الغرفة صبي فى مقتبل العمر ، فى

وجهه أثر الجدرى ، فأخذ يرمق « موتسارت » ويتأمله ثم قال ، له فى حياء :

— أى أستاذى ، لانى قادم من مدينة « بون » وقد وصلت أخيرا

إلى « فينا »

فقاطعه « موتسارت » بقوله :

— هل حقا أنت عازف بالأرغن ؟ لانى لا تزال صبيا

— لقد بلغت السادسة عشرة ، ولكنى فى حاجة لازدياد تعليمى حتى

أتكسب ما يقوم بأود أبوي وأخوتى .

لم تكن هذه النعمة جديدة على « موتسارت » فقال للصبي: أريد أن أسمعك تعزف. ثم قصد بنفسه إلى البيانو حيث جلس إليه، وبدأ في عزف فكرة موسيقية، ثم طلب إلى بيتهوفن أن يسير على منهاج هذا اللحن ارتجالاً

جلس الصبي « بيتهوفن » إلى البيانو وقد بدأ العزف في خجل ظاهر، ثم سرعان ما اندمج فيه حتى تلاشى في الموسيقى وأصبح لا يحس شيئاً حوله إطلاقاً ولا يشعر إلا بوحى الموسيقى وإلهامها كان في هذا العزف مفاجأة لموتسارت، إذ لم يكن يتوقع من هذا الصبي كل هذا الفن الذي لا يدل عليه مظهر الصبا، وأخيراً نهض « بيتهوفن » بعد أن طبع « موتسارت » على جبينه قبله التقدير، فخطبه « بيتهوفن » قائلاً:

— أسمح لي أن أتناشد عليك؟ فتعطيني دروساً أتم بها فني؟

— نعم، وسأبدأ معك من الغد

انصرف « بيتهوفن » بعد أن ودع أستاذه « موتسارت » وقد نال بغيته وأصاب طلبته، وتحققت أعز أمنياته

ولكن للأسف لم يتلق « بيتهوفن » على « موتسارت » كثيراً من الدروس فقد كان مشغولاً بأعداد أوبراه الجديدة التي تعاقد عليها مع « براغ » وكان منصرفاً إليها لدرجة أنسته تلميذه. كذلك مرضت والدته « بيتهوفن » فاضطر للعودة إلى « بون »

قالب

لم يخفف من خيبة « موتسارت » في فقد والده إلا شدة انشغاله
بتلحين أوبرا الجديدة التي يعدها لمدينة « براغ » فقد أقبل على تفهمها،
ودراسة مواقعها، وتكييف ألحانها، وصياغتها، بما استحوذ على فكره،
واستولى على جميع حواسه

كانت هذه أوبرا « دون جوان » وهي أيضا من نظم « أبات دى
بونت » شاعر القيصر، الذي نظم له أوبرا « زواج الفيجارو » من قبل
وتلك الأوبرا الجديدة وقعت حوادثها في أسبانيا فهي لذلك قد
جمعت بين مرح الجنوب، وفكاهة الخلوة، كما أنها مفعمة بالحس المتطرف
المتنقل، إذ كان بطلها « دون جوان » زير نساء، انغمس في ملذاته،
وإشباع شهواته حتى قاده إلى الموت

إذن، فقد كانت هذه الأوبرا مليئة بالطرائف والمفاجآت، مفعمة
بشتي العواطف، ومختلف النزعات. وأية قوة تستطيع أداء هذه المهمة
تامة كاملة، وتعبّر عن تلك النواحي المختلفة المتباينة غير الموسيقى؟ وأي
فنان يستطيع أن يؤدي هذه الرواية على الوجه الأكمل غير « موتسارت »؟
وهكذا عثر « موتسارت » في هذه الأوبرا على ضالته التي ينشدها.

وأخذ يكسو أشعارها من فيض إلهامه ألحانا ساحرة، ونما عجيبا،
فلما أنجز تلحينها، إلا قليلا اعتزم الرحيل إلى « پراج » لاقترب الموعد
المحدد له

كان الفصل خريفا، وأجوس صحو، في يوم من أيام سبتمبر، حيث
غادر « موتسارت »، وزوجه « كونستانسه » « فينا » مدينة القيصرية،
وقد خلفا وراءهما عصابة المعارضين من أعدائه وجماعة البلداء من تلاميذه
الذين كتب عليه أن يشقى بتعليمهم. وكانت تقلهما عربة كبيرة فخمة
قدمتها لهما أرملة القائد « فولكشتيت » إحدى المعجبات بفن موتسارت
وهي عربة مريحة معدة لتلك الرحلات الطويلة، ذات غطاء محكم،
ومقاعد وثيرة من الجلد اللين

أخذت جياد المركب تنهب الأرض في طريقها إلى « پراج » وسط
المروج الخضراء، والغابات الواسعة المترامية الأطراف، وكانت السماء
صافية غاية في الصفاء، والجو معتدلا غاية في الاعتدال، وأخذ
« موتسارت » يتمتع طرفه بهذا المنظر الساحر ويسحر لبه جمال الطبيعة
القتان. وهو في دخيلة نفسه يشعر بتحلله من ضيق (فينا) ودسائس
فنانيتها ويستقبل مدينة « پراج » التي تسنفد الصبر للقاءه، والتي يحبه أهلها
ويقدسون له. لهذا كان « موتسارت » في طريقه شديد المرح، كثير
الدعابة مما أثار ضحك « كونستانسه »

بلغ المركب مدينة « پراج » فنزل الزوجان في فندق « الأسود
الثلاثة » وكان قد أعدده لهما « بوندينى » ولكن إقامتهما بهذا الفندق لم
تطل فقد استضافهما الصديق « دوشيك » في بيت له خلوى بضواحي
« پراج » الجميلة التى كان من سحر مناظرها ، وجمال طبيعتها ، ما طمأن
الفنان على الإقامة فيها حيث أتم تلحين أوبراها ، واستكمل كل معداتها
الفنية

كان النبلاء ، والأشراف ، وعلية القوم من أهل (پراج) ، والكثير
من أصدقاء الفنان ، والمعجبون به يؤمون هذا البيت ويترددون عليه
لزيارة « موتسارت » ، فكانوا يستمتعون بسماع القليل مما يوجد به عليهم
من ألحان أوبرا الجديدة . وكان هؤلاء رسل دعاية قوية فى (پراج)
يحدثون أهلها عن بديع الألحان وروائع الموسيقى التى تحويها الأوبرا
المنتظرة حتى صار الشعب يتلف على مشاهدتها ، ويتوق لسماع ألحانها
بدأت التجارب ، وكان « موتسارت » قد نهج فى تلحين هذه
الرواية نهجا جديدا غير الذى كان متبعاً من قبل ذلك بأنه فى صياغتها ،
لم يهتم إلا بالناحية الموسيقية الفنية لذاتها ، لتكون الأنغام تعبيراً عن الشعر
ومعانيه ، مسيرة لمواقف الرواية ، مؤدية لأغراضها ، ولم تقيده فى ذلك
حناجر المغنين والمغنيات أو كفاية العازفين فيتقيد بها فى تأليفه ، ومن
أجل ذلك رأى الفنان أن يتهاون فى تجاربه مع هؤلاء المغنين والعازفين

فيقوم لهم بإجراء تعديل بسيط إذا لزم الحال ، وتطلبته مقدرة الأداء .
من ذلك مثلا ، أنه في منظر الكنيسة حيث ينفرد النفير بصوته ، كان
العازف بتلك الآلة شيخا لم يدر كيف يعزف هذا الموضع . ولقد أرشده
« موتسارت » غير مرة إلى طريقة الأداء ولكنه لم يقدر عليه فلما ضاق
الشيخ بهذا الإرشاد قال مغضبا :

— ليس في وسم الجن ، يا سيدي ، أن تؤدي هذا الوضع بتدوينه
الحالي وما في قدرتي أن أتغلب عليه . فربت « موتسارت » على كتف
الشيخ وقال في ابتسامة حلوة :

— لا تغضب أيها الشيخ ، فاني أجعل نفسي عن تعليمك وإن
تستطيع أن تحفظ مني شيئا ، هات النوتة ، وسأغير لك الموضع بحيث
تيسر لك سهولة الأداء

وتناول « موتسارت » النوتة من الشيخ وأخذ في تعديل بعض
علامات جعلت الأداء للعازف ميسورا سهلا

وفي اليوم السابق لإخراج الأوبرا ، أقبل « بونديني » على موتسارت
فزعاه متجههم الوجه عبوسه ، وهو الذي ما تعود إلا أن يلقاه فرحامستبشرا
فأزعج الفنان لهذا التغير المفاجيء ، وخشى عاقبته فخاطبه :

— ما بالاك ؟ إنه ليخيل للناظر إليك ، أن قد أصابك أمر جلل
طعمني ، ما وراءك ؟

— نعم أصابني ما يدعو إلى القلق والانعراج

— أرجو ألا يكون مختصا بالأوبرا

— بل هو للأسف مختص بها، وإنك تعرف السبب، ولا ريب

— لا أدري ما تقصد، وأجهل ما يفزع سيدي المدير فلقد جاءت

التجارب غاية في النجاح، وكل شيء على أتم ما يرام

— هذا صحيح...

— ويبت التذاكر حتى لقد نفذت جميعها منذ ثمانية أيام

— وهذا صحيح أيضا...

تحول هدوء موتسارت إلى فزع، وظهرت على وجهه أمارات

الاهتمام وقال في لهفة :

— هل مرضت المغنية الأولى السوبرانو أو المغنى الأول التينور؟

— لا هذا ولا ذاك

هدأ «موتسارت» وأخذ يداعب صديقه :

— إذن هل حدث شيء لزوجك، أو وقع انحراف في صحتها؟

فأجاب «بونديني» في تهكم وتعجب :

— صحتها، وصحتي، وصحة الجميع بخير !

— إذن لا أدري حقاً ماذا يزعجك ولماذا ترعجني. معك على هذه

الصورة المخيفة

— إن الأوبرا ينقصها « الأوفر تير » (المقدمة الموسيقية) يا سيدي الفنان !
قال بوندينى ذلك والشرر يتطاير من عينيه ، ويكاد من غيظه يفترس
« موتسارت » ثم استمر فى حديثه يقول :

— وغدا تظهر الأوبرا . والآن فقط حضر إلى « كوخارتس »
رئيس الفرقة الموسيقية المستديم ، وأخبرنى بالمصيبة التى أزعجتى أن
الأوبرا ليس لها حتى الآن « أوفر تير »

فلما سمع « موتسارت » ذلك انبسطت أسارير وجهه وقال وهو
يضحك من المدير :

— إذا كان الأمر مقصورا على ذلك فهو هين فلدينا إلى الغد متسع
من الوقت

كاد « بوندينى » يحن لهذا الاستهتار وقال فى سخرية :
— نعم متسع من الوقت يوم كامل إلى الغد لتأليف أوفر تير كاملة
لأوبرا كبيرة نغمة مثل « دون جوان »

وضم « موتسارت » كلتا يديه فوق كتفى المدير وهزه وهو يقول :
— وهل تعتقد أننى سأسبىء إلى عملى العظيم بوضع أوفر تير غير
لائقة ؟ إطمئن يا صديقى . فإننى لن أمنح العالم إطلاقا أوفر تير كهذه ،
روعة ونغامة وسجرا

فتنفس « بوندينى » الصعداء وكأما ألقى عن كاهله حملا ثقيلا وقال فى

فرح شديد:

- شكرا لله إذن فقد أنجزت الأوفرتير ، عليّ بها ، سلمني إياها
أيها الفنان المبدع ، سأحملها معي الآن

ضحك موتسارت منه وهو يقول :

- نعم أنجزتها ، وهي منتهية تماما ولكنني لم أكتب منها حرفا واحدا
هي منتهية كاملة في رأسي

كاد « بونديني » يصعق لهول ما سمع ، فقال وهو يضرب يدا بيد :
- في رأسك أي خراب ، وأي دمار ينتظرنا . وعلى فرض
أنك تحفظها في رأسك ، فمتى يتم لك تدوينها وتوزيع الموسيقى للجسم
آلات الفرقة التي تزيد على المائة عازف ؟

- أرسل النساخ إلى في صباح الغد ، في الساعة السابعة تماما .
وسأعطيه العمل كاملا . وعليه الاجتهاد في نسخها . عده بمضاعفة أجره .
- مضاعفة الأجر ميسورة ، ولكنني لا أستطيع أن أتصور أن
في استطاعتك أن تقوم حتى إلى صباح الغد بعمل « أوفرتير » مناسبة لتلك
الأوبرا العظيمة « دون جوان » إلا إذا كنت يا « موتسارت » جننا ،
أو ساحرا .

- تصور ما يبدو لك ، يا سيدي المدير ، ولكنني أرجو أن تدفني
الآن وحدي ، أريد أن أبدأ العمل .

— لئني شديد الحرص على ألا تضيع من وقتك ثانية واحدة . .
سأرسل لك النساخ في تمام الساعة السابعة من صباح الغد . . إلى اللقاء :
قال « بونديني » ذلك وخرج من الغرفة مهرولا وقد أطلق ساقيه
للريح .

جلس « موتسارت » وحده ، وهو يضحك . ثم قام وأحضر ورقة
لكتابة النوتة ، ومداداً وقلماً . وما تأهب للعمل حتي دخل عليه صديقه
« دوشيك » وخاطبه قائلاً :

— يوم رائع ، وطقس جميل ، لقد أعددتنا أنفسنا يا « موتسارت »
لنزهة خلوية في الضواحي ، وإن مركبي لينتظرنا بالباب ، وإن زوجي ،
وزوجك ، كلتاهما جالسة فيها ، أليس من الإِجرام أن يظل المرء حبيس
البيت في مثل هذا الطقس البديع ؟
— سأكون معكم .

قال « موتسارت » ذلك وقد نسي « الأوفرتير » و « بونديني »
والنساخ . وقام فأبدل ردائه ، ولبس قبعته ، وتبسم مضيفه وهو يغني
ويصفر في فرح ، ومرح !

خرج الجميع إلى ضواحي (براج) الرائعة المنظر ، واستمتعوا بجمال
طبيعتها الساحر ، وسمروا بحديث طلي ، فمر الوقت مسرعاً ، وانقضت
الساعات دون أن يشعروا بها . وأقبل المساء فعادت العربة حتي وقفت

أمام منزل « دوشيك » حيث وجدوا البيت جميعه مضاء كأنما أعد لحفل
نغم ، بل لقد امتلأ بالزائرين .

استوضح « موتسارت » جليلة الخبر في عجب واندهاش
فقال « دوشيك » :

— إننا سنحتفل الليلة بظهور الأوبرا العظيمة « دون جوان » التي
سيظفر بها المسرح غدا . ولقد دعوت لهذا الغرض جمعا من الأصدقاء ،
ونخبة من رجال الفن والصحافة لنشرب معا نخب الفنان العظيم ، ونتأججه
المعجز .

لم يكن لدى « موتسارت » أحب من وجوده في مثل هذه المجتمعات
المرحة ولذلك أقبل على الدار فرحافا مستقبلة الحشد في تجلة ، واحترام ،
وانشراح .

كان ضمن المدعوين طائفة كبيرة من المغنين ، والمغنيات الذين
سيقومون غدا بغناء الأوبرا ، كذلك حضر الحفل « بونديني » مدير
المسرح وزوجه . أكل الجميع وشرب ، وظل الجميع في بهجة ومسرة ،
وكانت « موتسارت » حلو الفكاهة ، رقيق الدعابة ، فبعث من روحه
المرحة ما غمر الجمع سرورا وانشراحا . وفي منتصف الليل هم صاحب المنزل
« دوشيك » فطلب إلى ضيوفه أن يشربوا جميعا نخب النجاح العظيم
المنتظرا غدا لأوبرا « دون جوان » العظيمة .

وبينما القوم يشربون هذا النخب في ضجيج من الفرح إذا بونديني
يقوم فجأة مخاطبا الجم فيقول :

— إنكم تستطيعون الآن أن تشربوا نخب الأوبرا في سرور
ومرح ، وأنا أيضا معكم ، ولكنني أعيدكم مما كنت فيه صباح اليوم ، فقد
كدت أموت فرعا ورعبا ، والله وحده يعلم ما أهمني وأكرهني
قال « بونديني » ذلك فاستوضحه « دوشيك » السبب ، فقال :
— تصوروا أيها السادة ، أن فناننا الطيب ، لم يكن قد كتب حتى ظهر
اليوم حرفا واحدا في الأوفرتير

صمق الجميع ، وظهرت عليهم علامات الدهشة ، وقال « دوشيك » :
— ماذا ؟ الأوفرتير لم تكن قد أنجزت حتى ظهر اليوم ؟ هذا هذيان
منك يا صديقي المدير ، وقصة خرافية أملاها عليك الحمر ، فإن صديقي
« موتسارت » لازمني منذ الظهر ، ولقد تريضنا ومعنا زوجانا ، وقضينا
اليوم حتى المساء في الضواحي الجميلة لبراج إلى أن حضرنا معا حيث التقينا
بكم هنا . فلا بد إذن أن تكون الأوفرتير قد أنجزت قبل ذلك !
بهت « بونديني » ونظر إلى « موتسارت » نظرة استفسار وقال
في دهشة :

— الأوفرتير ، الأوفرتير يا أستاذ ، ماذا ثم في الأوفرتير ؟
— الأوفرتير ! قد نسيته .

قال « موتسارت » ذلك وهو يهرش خلف أذنه . أما « بوندينى »
فقد اصفر وجهه ، وجلس جثة لا حراك فيها . فقال له « موتسارت »
وهو يواسيه ، وقد أخرج ساعته فنظر فيها :

— الآن الساعة الثانية عشرة تماما ، إذنبقى لي سبع ساعات كاملة حتى
يحضر لى النساخ الذى سترسله لى فى تمام الساعة السابعة صباحا ، فى
هذا الوقت متسع لى وكفاية

— نهض « موتسارت » من مجلسه ، أما « بوندينى » فقد ظل
يهرف وينادى :

— ماذا ؟ الوقت كاف ؟ يا للسماء ! أوبرا نفخة ضخمة كدون جوان
يقتلها مثل هذا الإهمال !! كيف يمكن انجاز أوبرتير متناسب ونفخامة
تلك الأوبرا ! ومتى تكتب الألحان لكل هذه الآلات !! ومتى تقوم
الفرقة بعمل تجربة على عزفها !! اللهم كن عونى !! لئننى لا أدرى ماذا
أفعل !

وأخذ « بوندينى » يسير فى الغرفة سهلا لا يدرى ما يفعل فقال
« موتسارت » :

— لقد اتفقنا أن ترسل لى النساخ فى تمام الساعة السابعة صباحا أما
تجربة الفرقة على عزف الأوبرتير فإنى أعرف رجالى ، عازفى الفرقة ،
أعرفهم جد المعرفة ، وأعرف كفاياتهم الفنية ، وفى مقدورهم عزف

الأوفرتير لأول مرة من الورق دون تجربة . هدى أعصابك يا سيدى
« بوندينى » ، وكن عظيم الثقة فى صديقك « موتسارت » وفى رجال
فرقتك . عموا مساء ، سيدانى وسادنى .

واتجه « موتسارت » إلى زوجه يخاطبها بقوله :

— خذى معك لى كاسا من الخمر انتعش به فى جلستى ، وأغالب
به النوم ، وظلى الليلة بجانبى .

أخذ « موتسارت » زوجه ، وترك الجمع وانصرفا إلى الغرفة
المجاورة ، وهى الغرفة التى اتخذها لعمله ، وكان كل شىء معدا فيها من
قرطاس ومداد وأقلام منذ تركها ظهرا .

— يا عزيزتى « كونستانسه » لا تبتئسى ، ولا تفكرى فى الأمر فإن
الأوفرتير جاهزة ومعدة .

فقلت « كونستانسه » مسرورة :

— ماذا ؟ الأوفرتير متتية معدة ؟ أرنى إياها ؟

فأجابها « موتسارت » وهو يضحك ، ويشير إلى رأسه :

— هنا ! إنى أحملها فى رأسى منذ ثمانية أيام ! وكان عدم كتابتها
مجرد كسل عن القيام بهذه العملية المملة ، عملية التدوين . والآن
يا « كونستانسه » ، كونى أنت الليلة شهر زاد فحدثينى عن خرافات
ألف ليلة وليلة واستنبطى ما يعاوننى على السهر .

أخذت « كونيستانسه » مكانها إلى جانب زوجها وأخذت تقص عليه قصة المصباح المسحور الذي كان يمتلكه علاء الدين ثم انتقلت به إلى قصة السندباد البحري ، وهكذا حتى مرت ثلاث ساعات كاملة ، و « موتسارت » يجد في الكتابة ، مقبل على تدوين الألحان في صمت تام لم ينقطع إلا فترات ينظر فيها إلى زوجته نظرات خاطفة ! أو يشرب جرعة من كأسه ، ثم يتابع العمل .

بدأ الفنان يتأقّل في التدوين ، ويبطئ في الكتابة ، وأخذت علائم التعب تبدو عليه فكان رأسه يسقط على القرطاس من النعاس فيغالبه برفعها سريعا . فأقبلت عليه « كونيستانسه » تمسح جبينه في رفق وحنان ، وتقول له :

— يا عزيزي « فولفجانج » لقد أخذ منك التعب مأخذه وليست هناك فائدة من إجهادك لنفسك على هذا النحو . قم ثم قليلا ثم استيقظ ، وأتم عملك في جد ونشاط .

— صدقت يا « كونيستانسه » ، إن العزيمة يقظة ، ولكن الجسم نائم . سأستريح ساعة واحدة ، أقوم بعدها فأتابع العمل . عديني أن تظلي مستيقظة وأن توقظيني بعد ساعة تماما

ما كاد الفنان يستلقي على أريكته في جانب الغرفة حتى غرق في النوم ، فلما انقضت الساعة المحددة ، وأقبلت « كونيستانسه » لا يقاظه

وجدته في سبات عميق ، أشفقت معه أن توقظه ، فانتظرت حتى دقت
الساعة الخامسة فلم تجد بدا من إيقاظه ، فأيقظته بقبلة طبعها على فمه .
استيقظ « موتسارت » وكان أول عمل له أن نظر إلى ساعته وقال :
— الساعة الآن الخامسة . إنك يا كونستانسة لم تف بوعدك ولكن
لا يزال هناك متسع من الوقت ، والآن إذهبي أنت إلى مضجعتك
ودعيني وحدي

أطاعته كونستانسة وانصرفت إلى مضجعتها ، واستمر هو في الكتابة
وقد تضاعف نشاطه حتى كان القلم كأنما يطير على صفحة قرطاسه
وفي تمام الساعة السابعة دق الطارق الباب ، ودخل النساخ الغرفة
فوجد أوفرثير « دون جوان » مدونة معدة ملقاة أمام « موتسارت » .
وهكذا تم هذا العمل الخالد .

جاء المساء فتدفقت الجماهير إلى الأوبرا واحتشدت الجموع أمامها
حتى إذا فتحت الأبواب تدافع الناس في الدخول حتى امتلأت المقاعد
بعد دقائق معدودة ، وأخذ القوم ، كأنهم في خلية النحل ، يتحادثون عن
« موتسارت » ذلك الفنان العبقري الموهوب ، محبوب أهل براج ، وعن
جلال الموسيقى التي ينتظرونها الليلة . وبعد لحظة سرت في القاعة قصة
« الأوفرثير » فأخذ الجمهور يتناقل حديثها لغرابتها وشدة وقعها ، بل
كان ذلك سببا في شدة تطلم الجمهور وتشوقه لسماع هذه « الأوفرثير »

التي لم يكن حظها من « موتسارت » إلا بضع ساعات في ليل متأخر
وفي الحجرة التي كان أعضاء الفرقة الموسيقية ينتظرون فيها ، جلس
الجميع وقد ظهرت على وجوههم سيماء الحيرة والارتباك . الأوفرتير لم
تحضر بعد ، برغم أنها وزعت على عدة نساخين ، ولكنها كثيرة العلامات
الموسيقية من ثنائية الأسنان وثلاثيتها «دوبل كروش وتريل كروش»
صا استغرق جميع وقت النساخين

أخذ الجمهور في القاعة يسدى قلقه ، وجلس « بونديني » جثة
لا حراك فيها ، وإذا بصوت يرتفع قائلا . « إنها حضرت إنها حضرت »
كانت أوراق « الأوفرتير » قد جىء بها حقيقة ، ولما يجف مدادها
بل ولا يزال عالقا بها ذرات الرمال التي جففت بها ، فانتفض « بونديني »
واقفا ، فوقع نظره على « موتسارت » وقد أقبل يفتح وجهه بشرا
وسرورا

أقبل « موتسارت » على رجال الفرقة الموسيقية وقال مخاطبا إياهم :
— أيها الأصدقاء الأعزاء ، إنني لا أستطيع معاوتكم ، ويتحتم عليكم
عزف « الأوفرتير » من النوتة مباشرة ، من أول مرة ، وما كان لي أن
أجسر على هذه المخاطرة لو لم أكن واثقا من مهارتكم الفائقة وكفايتكم
الفنية البارعة ، والآن لنعتمد على الله ونبدأ العمل
أسرع كل واحد من رجال الفرقة ، إلي تسلم أوراقه وقد امتلأت

قلوبهم حماسا لما سمعوه من الاطراء وحسن التقدير الذي وجهه اليهم
فنانيهم الأعظم

ما كاد « موتسارت » يحل مكانه من موضع القيادة في الفرقة حتى
قابله الجمهور بعاصفة من الهتاف والتصفيق دوت في المكان تصم الآذان
انسابت نغمات « الأوفرتير » في شجو ساحر ، وأنغام حلوة
وانسجام رائع ، حتى إذا شارفت الانتهاء وارتفعت الستارة عن الفصل
الأول انفجر الجمهور بالتصفيق وهتاف الاستحسان والتقدير ، ولم يختص
الجمهور الفنان وحده في هتافه بهذا التقدير بل جعل نصيبا منه لعازفي
الفرقة الذين استطاعوا الأداء من غير تجربة

سارت الأوبرا في ألحان كأنها وحى سماوى ، ونغمات عذبة ملائكية
كل شيء فيها جديد مبتكر . لم يسمع الناس من ألحانها ما يذكرهم بشيء
قديم . بل لقد تنقل الجمهور من لحن إلى لحن ، واشتد التأثر بها من فصل
إلى فصل حتى بلغت العاصفة أشدها في نهاية الرواية . كرر الجمهور تحيته
للفنانين في نهاية الأوبرا غير مرة ، أما « موتسارت » فقد اضطروه
بتصفيقهم ، وهتافاتهم الحارة إلى الظهور على المسرح مرارا لا عداد لها .
بل لقد تأثر العازفون أنفسهم بحلاوة الألحان حتى كانوا يتمنون لو أنهم
بدأوها من الأول

وأقبل « بونديني » على « موتسارت » يحتضنه ، ويقبله وهو يقول :

- عز نرى الأوحـد « موتسارت » ، لن أنسى طوال حياتى هذه
الليلة ، كما أننى لن أنسى ليلة أمس واليوم الذى سبقها
لقد بلغ « موتسارت » فى تلحينه « دون جوان » القمة من مجده
فكانت هى تاج جميع الأوبرات التى أبدعها
وكانت هذه الأيام التى قضاها فى « براج » أحسن أيام حياته إطلاقاً

بين قصر وملك

ذاع صيت أوبرا « دون جوان » في جميع البلاد الألمانية، وصارت تنتقل بين مسارحها الكبرى، وهي تلقى في كل مكان نجاحا باهرا وإقبالا من الجماهير منقطع النظير ولكنها برغم ذلك لم تستطع أن تشق طريقها إلى « فينا » إلا بعد عام أو بعض عام إذ كان أول ظهورها بمسارحها في ٧ مايو سنة ١٧٨٨ حيث استقبلها الجمهور فيها استقبالا فائرا، وحتى قال القيصر « جوزيف الثاني » عند سماعه لها: —

« لئن كانت هذه الأوبرا سماوية، لقد لا تصاح غذاء لأهل فينا ».

إلا أن أهل هذه المدينة، أخذوا يتذوقون هذه الأوبرا الخالدة، رويدا رويدا، ويتفهمون موسيقاها شيئا، فشيئا،

فكانت كلما أعيد تمثيلها، ازداد إعجابهم بها، وإقبالهم عليها، لم تنقطع دسائس المعارضين وشيعة منهم من أهل الفن بل ظلوا يحيدون الشباك حول « مونتسارت »، و يقيمون العقبات في طريقه، ولكنهم برغم ما بذلوا من النشاط الواسع في هذه الناحية، لم يستطيعوا أن يقفوا في سبيل عطف القيصر عليه، فقد عينه ببلاطه في وظيفة « موسيقى الصالون » بمرتب ثابت قدره ثمانمائة جولدن سنويا (ما يقرب من السبعين جنيا)

ولئن وجد « موتسارت » في هذا المبلغ الضئيل بعض العون لقد كان عمله في هذه الوظيفة محدودا ، مقتصرًا على العزف في حفلات الرقص التي يقيمها البلاط ، مما كان يضيق له صدر « موتسارت » حتى قال مرة في صدد ما يتقاضاه من هذه الوظيفة « .. وهذا كثير بالنسبة لما أنتجه قليل بالنسبة لما أستطيع إنتاجه »

وخلت وظيفة الرئيس الأول لفرقة البلاط بموت الموسيقار « جلوك » وكان المرتب المربوط عليها ألفى جولدن في السنة (حوالي المائة والسبعين جنيها). فحاول « موتسارت » أن يشغل هذا المنصب فلم يوفق وكان الأمير (كارل ليشنوبسكي) من أكبر المعجبين بموتسارت ، حتى لقد تتلمذ عليه مدة طويلة . سافر هذا الأمير عام ١٧٨٩ إلى برلين فاستصحب معه أستاذه الموسيقار ، الذي فرح لهذه الرحلة لعله يجد فيها مخرجا من بؤسه ، ويوفق إلى وظيفة ثابتة يعتمد عليها في حياته

وقد صادف يوم وصولهما برلين أن كانت أوبرا (الاختطاف من السراي) تمثل بها في دار الأوبرا . فقصده « موتسارت » إلى المسرح توا بملابس السفر ليقف على كفاية القائمين بأداء هذه الأوبرا غناء وعزفا دخل « موتسارت » المسرح لم يعلم به أحد وتسلسل بين الجماهير ، لكنه لم يستطع إخفاء إعجابه ببعض الفنانين ، ولم يكتفهم عدم رضائه عن البعض الآخر . وكان يتقدم في مقاعد القاعة حتى بلغ مكان الفرقة ، فأخذ

رافبها . وحدث في أثناء مصاحبة الموسيقي لقطعة غناء منفردة في أحد
مواقف الأوبرا أن عزفت آلات الكمان إحدى النغمات خطأ فأدرك
«موتسارت» أن سبب ذلك خطأ كتابي في النوتة الموضوعة أمام العازفين
فخرج عن صمته وصاح في رجال الفرقة : « يا للهول . . . » أرجو أن
تعزفوا في هذا الموضع « ري » بدلا من « ري ديز »

فالتفت رجال الفرقة إليه ، وعرف بعضهم في هذا الشخص النحيل
الجسم ، الصغير الحجم ، المرتدى رداء رماديا بسيطا ، أنه هو الموسيقار
« موتسارت » . وفي بضع لحظات كان نبأ وجوده قد سري كالبرق في
وسط القاعة وتناقل الجمهور خبره فتصايح « موتسارت هنا » وانتقل
الخبر إلى المسرح ، فكان مفاجأة شديدة للمغنين والمغنيات ، وبلغ من
شدة الوقم أن اعتذرت إحدى المغنيات من إتمام دورها فاضطر
« موتسارت » للصعود إلى المسرح وتشجيعها حتى لقد وعدّها بأن سيقوم
بنفسه بدراسة دورها ممها لتجويده .

وظل « موتسارت » مدة إقامته ببرلين ، يتردد يوميا على الملك
فريدريك الأكبر ليعزف له . وإذا كان الملك معروفا بشدة شغفه
بالموسيقى ، بل وولعه بها ، وعظيم تقديره لأهلها فقد عرض على
« موتسارت » وظيفة رئيس فرقة البلاط ، وأن يمنحه مرتبا سنويا ثابتا
قدره ثلاثة آلاف تالر (حوالي أربعمائة وخمسين جنيها) إلا أن موتسارت

قد أجابه في سذاجة الفنان، وصرachte :

« هل أستطيع أن أترك قيصرى طيب القلب ؟ »

وتأثر الملك لهذا الجواب، وأعجبه من « موتسارت » إخلاصه
لقيصره فوعده بأن يحتفظ له بهذا العرض عاما كاملا يستطيع فيه أن يشاور
نفسه، ويرجع فيه إلى قيصره.

وخرج موتسارت من حضرة فريديريك الأكبر وقد نسى أنه
ما جاء برلين إلا لغرض السعى عن وظيفة ثابتة ولكن وطنيته الكامنة وحب
الغريزي لمدينة فينا، برغم ما يلقاه فيها من بؤس، هو الذى يدفعه دائما للعودة
إليها.

إذن فقد عاد « موتسارت » إلى فينا ولكنه قد اعتزم فى نفسه أن يعرض
الأمر على قيصره، فإما أن يقبل زيادة مرتبه، أو يعفيه من خدمته
فيرحل إلى برلين.

وتناقل القوم فى « فينا » خبر اعتزام « موتسارت » هجرة « فينا »
والرحلة منها إلى « برلين » فكان ذلك موضع حديث أندية تلك المدينة
ومجتمعاتها.

مثل « موتسارت » بين يدى القيصر فقص عليه خبر مقابلته للملك
فريديريك الأكبر وما عرض عليه من شأن الوظيفة. فقال القيصر :
« إذن صدق القوم فيما يشيعونه من أنك تريد هجرى ... لقد

أعلن الملك فريدريك الأكبر علي والدتي حرباً ضروساً أنت علي
الأخضر واليابس

قال القيصر ذلك . وقد نظر الي موتسارت نظرة تنهم عن المتاب
المشوب بالألم ، ونظر موتسارت الي قيصره فهاله ما رآه فيه من ضعف
الصحة ومن مرض ينذر بقرب نهايته . عندئذ نسي الفنان المال ، والشهرة
بل ونسي البؤس والكفاح والأعداء والمعارضين وقال :

- يا صاحب الجلالة ، لم يصدق الناس فيما قالوا ، انني لن أترككم
وسأظل في خدمة جلالتيكم

- هذا ما كنت أؤكد في فنان موتسارت

وانصرف « موتسارت » إلى منزله حيث تلقت زوجته
« كونستانسه » تستبينه الخبر

- هل أبلغته أمر سفرنا ؟

- كلا ، بل سنظل بفينا :

- وهل طالبتة على الأقل بزيادة مرتبك ؟

- كلا لقد نسيت .

بقي « موتسارت » في (فينا) ، ودامت له حياة البؤس . وظل هذا
الفنان العبقري يغالب تصاريف الحياة ، ويصارع وسائل العيش ، بينما كان
غيره من الفنانين الذين كان شوطهم وراء خطوه نعمون بالرغد والليان

ولقد أصبح « بونديني » مدير مسرح (پراج) بفضل ما درته
عليه أوبرا « دون جوان » من الأرباح الطائلة مثيرا واسمعة النعمة ، بينما
كان حظ « موتسارت » منها إنما هو مبلغ الأربعين جنيها المخصصة عادة
أجرا للأوبرا .

وظل « موتسارت » في ضيق من العيش ، لا يسعفه فيه رائق فنه ولا
عظيم نتاجه ، حتى كان يقول في كثير من المناسبات : « إن الموسيقى فن
لا خبز فيه »

ونظرا لضآلة مرتب « موتسارت » واضطرار زوجته كونستانسه
للإقامة بالمصحات للولادة أو لتريض أبنائها الكثيرين الذين كانوا رغم
عنايتهم بهم فريسة للأمراض ، ولم يعيش منهم إلا ولدها البكر كارل ،
اضطر « موتسارت » إلى استدانة ما يسد به حاجته . وقد لاقى كثيرا
من الشدائد في مطالبة الدائنين له بما حمله ، لكي يخفف وطأتهم ، أن
يقوم مرغما بتلحين أوبرا جديدة لأحد مسارح « فينا » الإيطالية وكانت
هذه الأوبرا واسمها « هكذا يصنع الجميع Cossi fan tutti » تافهة
الموضوع ، سقيمة المعنى ظاهر فيها التكلف إلى مدى بعيد فلم يجد معارضوه
« موتسارت » وأعداؤه عناء في إسقاطها ، فلم يكتب لها نجاح يذكر .

مات القيصر « جوزيف الثاني » في ٢٠ يناير سنة ١٧٩٠ ، وتولي

بعده القيصر « ليوبولد » فعزل الموسيقار سالييري وبعض رجال فرقته الموسيقية . وحاول « موتسارت » أن ينال وظيفة مناسبة بعد هذه التصفية فأخفق ، كما صاعت منه وظيفة برلين .

وزاد بؤس « موتسارت » حتي بلغ أشده ، فرهن كل ما يمتلك ، وأحاط به الإئدقاع .

في صباح يوم من أيام صيف عام ١٧٩١ حضر إلى منزل « موتسارت » رجل بدين الجسم ، مفتول العضل ، قوى البنية ، فلم تنال به « كونستانسه » واستقبلته في فتور غير قليل ، ذلك بأن هذا الشخص كان الوحيد بين أصدقاء زوجها الذي لا تراح إليه ، فقد كان رجلا مستهترا ، يعيش عيشة البذخ وكان كثير الغواية لزوجها ، يحمله في كثير من الليالى على السهر الطويل المتبذل فلا يعود إلى بيته إلا في حالة سيئة غير مرضية .

هذا الزائر هو « عمانويل شيكانيدر » كان مديرا لكثير من مسارح المدن النمساوية ، حالفه النجاح في أعماله فأصبح ذا ثروة واسعة . وتعرف إلى أسرة « موتسارت » يوم أن كان مديرا لمسرح مدينة (زالتسبورج) . وهو الآن مدير أحد مسارح مدينة (فينا)

أرشدت « كونستانسه » الضيف إلى غرفة زوجها فاستقبله متهللا قائلا :

- صديقي شيكانيدر !! أهلا ، وسهلا ، إنني لم أرك منذ زمن طويل ، كيف حالك ؟

- حالي سيئة ، بل أسوأ مما تتصور ، لم يعد هناك أقل إقبال على مسرحي ، مهما بذلت فيه من جهد ، ومهما عرضت فيه من مسرحيات هزلية ، أو غنائية ، فإنه يظل خلوا ، إن القوم ليفضلون على التمثيل مشاهدة سباق الخيل أو دور ملاعب (الأراجوز) حيث يتفكهون بالمهرجين والألعاب البهلوانية ، إنني قد أفست يا « موتسارت »

تجمد الدم في عروق « موتسارت » لشدة وقم الخبر عليه ، إذ أنه يعرف في صديقه سعة الثراء ، وأنه كان يعيش عيشة الأُمراء ، حتى ليعد في طليعة الطبقة الراقية من أهل (فينا) فمن غير المعقول أن يراه مفلسا على هذه الصورة . وإذ لحظ شيكانيدر حيرة « موتسارت » وارتيابه أكد له الأمر وخاطبه والعبرات تخنقه :

- إنني يا صديقي لا أقول إلا حقا . وليس هناك في العالم كله منقذ إلا شخص واحد هو أنت يا موتسارت

اشتد العجب بموتسارت وأجابه في دهشة :

- أنا ؟ . أنت تعلم أنني لا أملك درهما واحدا

- ليست معونتك في إقراض المال إنما العون كل العون في أن تلحن

أوبرا خاصة لمسرحي ، أوبرا ألمانية ، فإن فعلت ذلك فقد أنقذتني

— لقد آليت على نفسي ألا ألحن لفينا أبة أوبرا .

فوضم « شيكانيدر » يده على كتف « موتسارت » وقال له في توسل :

— « موتسارت » ! ، أيها الصديق الأغبر ، إذا كنت أنت ،

تتغلى عني في هذا الوقت المصيب ، فمن أطمع في نجاته ؟

أثر هذا القول في قلب « موتسارت » الطيب . فوافقه ، ثم سأله ،

كيف يرى أن تكون هذه الأوبرا ؟

— أريد أن تكون هذه الأوبرا أعجوبة ، أوبرا لا مثيل لها تسحر

من أهل (فيينا) اللب والسمع ، تجمع بين النار والماء ، والوحش والمستأنس

بل سأظهر فيها زوجا يكون نصفه إنسيا ونصفه طائرا . وسأقدم لك

الموضوع بعد ثمانية أيام .

— سأحقق لك أمنيتك ! وسأقوم لك بتأحين تلك الأوبرا الجديدة

بأذلا فيها قصاري جهدي لتكون فريدة في نوعها

— أنت أنبل فنان ، وأشرف مخلوق . . . قال « شيكانيدر » ذلك

وهو يضم « موتسارت » إلى صدره ، ثم استمر يقول . . . أوبرا جديدة

.. من « موتسارت » . سيجن العالم عند سماع هذا الخبر . أما أنا فقد

أنقذت

وقبل الموعد المحدد تسلم « موتسارت » موضوع الأوبرا وهي :

« الناي الساحر »

وفي اليوم الثاني من تسلم الأوبرا حضر « شيكانيدر » ليطمئن على رأى « مونتسارت » فى موضوعها ، ونظمها

— أتدرى يا « شيكانيدر » كيف يخيّل إلى وأنا أقرأ روايتك ؟
لأنها كحلّم مجنون . لن يستطيع إنسان مهما بلغ به الذكاء أن يدرك لها
كنها ، أو يفهم لها معنى ، ولن يعرف أحد إن كانت وقائعها تجري على
الأرض ، أو تمثل فى القمر ، لأنها ملأى بأناس لا شخصية لهم ، ولا
جنسية ، ومناظر يتدخل الواحد منها فى الآخر دون ترتيب ، أو نظام ،
أو شكل مفهوم . .

فقاطعه « شيكانيدر » بقوله :

— يا صديقى ! ، أليس فى كل هذا ما يوقظ قوة الخيال فى الجمهور
ويثير عجبهم ودهشتهم ؟ وما رأيك فى روعة النظم ؟
فأجابه « مونتسارت » فى تهكم شديد :
— حقا إن النظم رائع !! أنظر إلى قولك فيه :
« المرأة تعمل قليلا وتتكلم كثيرا — أيها الصبي ، هل تؤمن بدمية
تتكلم »

— صدقنى يا « مونتسارت » ، وأنا خير بشئون المسرح ، عالم
بذوق أهل (فينا) أن هذا خير ما يتفق وذوق العصر . وسنستولي على
حسن الجمهور وسمعه

— والزوجان اللذان نصفهما إنسى ونصفهما طائر ، كيف يظلان
في ديالوج كامل لا يغنيان إلا مقطعا واحدا هو بابا بابا بابا بابا الخ
— أليس في هذا ابتكار منقطع النظير ؟ وتجديد لم يألفه الجمهور ؟
وإذ وجد « موتسارت » أن حوار « شيكانيدر » في هذا
الشان غير مجد فقد وافقه على تلحين تلك الأوبرا ، واختتم هذا الحوار
بقوله له :

— سألحن لك الروية ، ولو أني سأضحك من نفسي أثناء تلحينها .
وأقبل « موتسارت » على تلحين أوبرا « الناي الساحر » بمجد
ونشاط ، شأنه في تلحين أوبراته . ولم يتركه « شيكانيدر » يتفرغ وحده
للتلحين ، بل كان يتردد عليه من يوم لآخر ليستمع ما أنجزه منها .
وكان كثير النقد لألحان « موتسارت » يطالبه بكثير من التغيير والتعديل
فيها بحجة أنها لا تنفق وعقلية الجمهور . فكان يستبعد منها كل ما يراه
دقيقا رقيقا ، إنما كان يريد أن تكون الألحان بسيطة ، غير متعمقة في
الفن

كان « شيكانيدر » يقول لموتسارت :
— نريد أن يستمتع الجمهور بالألحان ، لا أن يفكر فيه ، ولا بد أن
نستهوى حواسه ونكسبها . أي « موتسارت » ! أعط الناس ما يشتهونه
وما يستطيعون احتمالها ، إن شعب (فيينا) شعب مرح ، ميال إلى الضحك

والسمر ، فإن فكر لا يميل إلى التفكير العميق
وإذ لم يكن هذا مبدأ « موتسارت » ، ولا رأيه فيما ينبغي أن
يكون عليه التلحين فقد كان يرد تلك الدعوى بقوله :

- إن للفن رسالة أشرف من ذلك ، يجب أن يرقى الفن بالشعب
لا أن ينزل إليه ، وأن يسمو الفنان به إلى منازل الحقيقة والخلد
فيحييه « شيكانيدر » في استنكار :

- أعرف ذلك يا « موتسارت » حق المعرفة وأعرف أن للفن
رسالة شريفة ، ولكن يجب أن تقود الناس في هواة وبطء وأن يكون
إرشادك لهم بالتدريج . الفنان يا « موتسارت » كالطبيب يصف دواء
مريرا يتعطاه المريض نقطة نقطة فإن زادت الجرعة انقلبت النتيجة إلى
عكسها ، فما بالك تريد أن يتجرع الشعب ، لا كأسا واحدة ، بل الزجاجة
كلها دفعة . إنك يا « موتسارت » تحمل الشعب ما لا طاقة له به

وكان « شيكانيدر » يسترسل في التدليل على حجته فيقول :
- أي « موتسارت » أبعد عن خاطرك التفكير في القيصر والبلاط
والأوبرات الإيطالية ، فقد تبينت أن هذا الطريق لا يزيدك إلا فشلا .
اتجه يا « موتسارت » ناحية الشعب ، فكر فيه وحده ، واكتب له تأليفا
من الألحان يجمع بين الحقيقة والجمال ويماشي عقليته وذوقه . ولقد
تعمدت أن يكون موضوع الرواية شيئا غريبا حتى يحرك قوة الخيال في

الجمهور اذ أنه كلما كان الموضوع مألوفاً، فتمثل الرواية صورة من صور
الحياة كان ذلك أدعى لفشلها وعدم نجاحها

كان « موتسارت » يسمع الى مثل هذا القول من « شيكانيدر »
كأنما هو في حلم ، حتى نزل على ارادته

بل لقد تدخل « شيكانيدر » في التلحين فكان يستمع الى كل لحن
ينجزه « موتسارت » فيحتفظ به إن راق له أو يطلب اليه تعديله وإدخال
كثير من التغيير فيه أو حذفه اطلاقاً اذا وجدته فوق طاقة الجمهور
وهكذا كان تدخل « شيكانيدر » في تلحين هذه الأوبرا الخالدة
« الناي الساحر » سبباً في حرمان العالم أروع ألحانها وأقيمها ، تلك التي
امتدت اليها يد الحذف والتغيير

ومن يدري فلعل هذا أيضاً سبباً من أسباب نجاحها وخلودها

قداس الحداد

في يوم من أيام ١٧٩١ أقبل على « موتسارت » شيخ شاحب اللون
تعلو وجهه أمارات الجد ، في لباس بسيط ، وقد وضع على قبعته وذراعه
شارة الحداد

قدم الشيخ رسالة إلى « موتسارت » غفلا من التوقيع ، لم يبع
كاتبها فيها باسمه ، إنما يطلب إلى « موتسارت » أن يؤلف له قداس
حداد يلقي في الكنيسة عند وفاته ، ويقول إنه مستعد لدفع ما يطلبه الفنان
من المال نظير ذلك ، كما أنه يفسح له الوقت الكافي للتأجيل كما يريد .
وإذا انتهى « موتسارت » من قراءة الرسالة خاطب الشيخ قائلاً :

— إن الرسالة خلو من التوقيع .

فأجابه الشيخ في شيء من الفتور :

— ليس الاسم بالشيء الذي يهم

— ومن تكون أنت ؟

— إني رسول مكلف بأن أعود بالرد .

أخذ « موتسارت » يفكر في الأمر . وطاف بذهنه خواطر
أصدقها أنه حتى الآن وبرغم كثرة نتاجه الموسيقي لم يؤلف لحناً
كنائسياً واحداً من هذا النوع المطلوب ، على عظيم أهميته الفنية التي

لا تقل أهمية عن فن الأوبرا، وكان يتمني لو تتاح له مثل هذه الفرصة
ليستطيع تقديم نتاج له في هذا النوع من الموسيقى الدينية
— سأضع قداس الحداد المطلوب، ولكنني لا أستطيع أن أعين
لك يوما للانتهاء منه.

— ما في الأمر عجلة. وما قيمة الأجر؟

— أربعمون جنيها

فأخرج الشيخ محفظة نقوده من جيبه. وعد المبلغ على النضدة
وهو يقول:

— إني مفوض في أن أدفع لك المبلغ حالا. وعند تسامى تلحين
القداس سأنقدك مبلغا آخر

— إلى أين أرسل التلحين بعد إنجازه؟

— سأحضر وأسلمه أنا بنفسى.

قال الشيخ ذلك وقد فرغ من عدد النقود ثم انصرف في صمت.
نظر موتسارت إلى الذهب البراق، وكان فيه معونة غير منتظرة لما هو
فيه من ضيق شديد. بل لقد كان فيه مسرة لموتسارت لولا أنه شعر
بانقباض في نفسه بسبب ذلك الرسول المتكرر. إنه سر خفى وطلب
محزن رهيب

وكان موتسارت لا يزال عاكفا على عادته من مواصلة العمل طوال

الليل . ولقد بدأت آثار هذه العادة السيئة تظهر في صحته فأخذ جسمه في النحول والهزال وزاده سوءا حالته النفسية وشعوره المرير بعدم تقدير الناس له . فلقد منح العالم أعمالا خالدة وورثه نتاجا يبقى على الزمن وهو مع ذلك محسود من أعدائه منكور من القيصرو رجال البلاط إذن فقد وجد موتسارت فيما طلبه هذا الرسول الخفي خلاصا نفسيا له من متاعب هذه الحياة الدنيا ، وجدها فرصة يتخلص فيها من العالم المتعب ، ويتجه فيها إلى الله بالتضرع إلى عبادته فيما يصوغه من الألحان في هذا القداس الديني

أقبل « موتسارت » على عمله ، ولكنه قبل الشروع فيه فوجيء بضرورة سفره إلى مدينة « براج » حيث يتوج القيصرو « ليوبولد » ملكا على أراضى « بوهيميا » ، وطلب إلى « موتسارت » تلحين أوبرا لهذه المناسبة وهى أوبرا « تيتوس »

واذ لم يكن هناك من الوقت لإنجاز هذه الأوبرا غير ثمانية عشرة يوما فقد اضطر إلى سرعة السفر مصطحبا معه تلميذه « زيسمار » وكان أحب تلاميذه إليه وموضع ثقته ، وكان لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، فعاون أستاذه الذى عكف على تلحين تلك الأوبرا ، وهو فى طريقه إلى المدينة

هال أهل « براج » وأصدقاء موتسارت ما رأوه عليه من هزال

وشحوب، وما لمسوه فيه من هم ونكد ظاهرين اختفت معهما روحه
المرحة التي تعودوها منه في جميع مجالسه

وفي يوم ٦ سبتمبر ظهرت أوبرا (تيتوس) لأول مرة، وكان
المنتظر أن يلقي هذا العمل الفني العظيم ما هو أهل له من الإكبار والتقدير
سيما من أهل (براج) الذين خصوا «موتسارت» بحبهم، وجبوه
بتشجيعهم، ولكن كان في نخامة مهرجانات التتويج، وازدحام المدينة
بأهلها والنازحين إليها ما صرف هذه الجماهير عن أوبرا «موتسارت»
هذا التاج الفني إلى سواه من ألوان المظاهر الخلابية والمهرجانات المفرحة
وإذن فقد عاد «موتسارت» إلى «فيينا»، مهبط الجناح، كسير
الخطر، يحزن في نفسه ألم إغفال نتاجه، وعدم تقديره، حتى من أهل
(براج) الذين كان يعتقد شدة تعلقهم بفنه

وإذ بدأ «موتسارت» في تلحين (قداس الحداد)، بعد عودته
شعر بهبوط مطرد في قواه، وضعف شديد في صبعته، حتى قال:

«أحس أنني أكتب هذا القداس لنفسي»

وكان هزال جسمه يطرد بسرعة كبيرة حتى خيل إليه أن أعداءه
قد دسوا السم له للتخلص منه. وكان وهو في هذا الاعتلال الصحي كثير
الاهتمام بإنجاز (قداس الحداد) الذي تناول أجره مقدما، ليتحرر
من تبعته

واشتد الضعف والسقم عليه حتى خشي شيكانيدر عدم استطاعة الفنان
إتمام أوبرا « الناي الساحر » وكان محمدا لظهورها علي المسرح يوم
٣٠ سبتمبر ولا يزال بعض مواقعها من غير تلحين كما أنها لا تزال من غير مقدمة
(أوفرتير)، فلأزمه حتى فرغ من كل شيء فيها قبل الموعد بيومين .

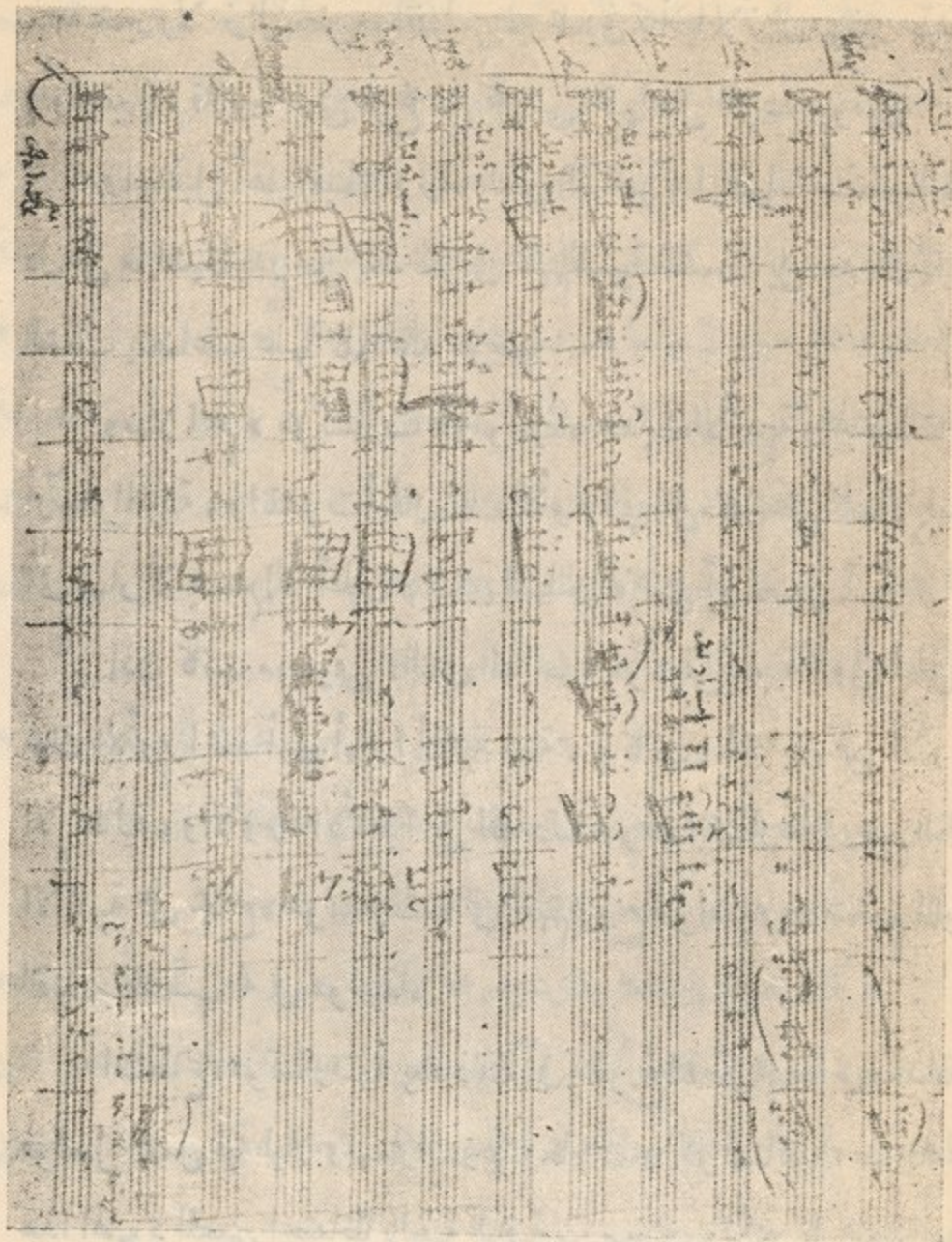
واستقبل أهل (فيينا) أوبرا « الناي الساحر » استقبالا منقطع النظير
دل على ما لشيكانيدر من بعد نظر في تفهم نفسية الشعب . بل لقد كان إقبال
الشعب يتضاعف عليها كلما أعيد عرضها

وصار اسم « موتسارت » وموسيقاه حديث الأندية والمجتمعات في
أرجاء المدينة ، وانتشرت ألحان تلك الأوبرا في كل مكان حتى كان الإنسان
أني صار لا يسمع إلا ألحان « الناي الساحر » تغني أو تصفّر .

إذن كانت موسيقى « الناي الساحر » موسيقى شعبية . وفي الحق إن
تلك الأوبرا تعد أول أوبرا ألمانية بحثة ، وكانت الحد بين فن الأوبرا
الإيطالية ، والأوبرا الألمانية . بل لقد دلت سرعة انتشارها في جميع البلاد
الألمانية على نجاح « موتسارت » في تفهم روح مواطنيه ، ومنحهم اللون
القوي المناسب له في موسيقاه

استطاع « موتسارت » بعد ذلك أن يتفرغ لتلحين « قداس الحداد » ،
فواصل العمل فيه ليلا ونهارا . وعبثا حاءات « كونستانسه » صرفه عن
هذا المجهود المصني احتفاظا بالبقية الباقية من صحته ، ولكنه كان يحس رغبة

ماصة في إيجاز هذا القداس، وكانت تلك الرغبة تتزايد فيه يوما بعد
 حبا في أن يكون هذا التأليف آخر ما يتقرب به إلى الله في حياته.



(صفحة نوتة من خط موتسارت في أوبرا الناي الساحر)

أغدقت أوبرا « الناي الساحر » المال وفيرا ، ولكن لا على صاحبها
« موتسارت » بل على « شيكانيدر » الذي أصبح مثرىا كبيرا حتى افتتح
له مسرحا جديدا بفيينا أكبر وأنخم مما كان له . وبلغ به نكران الجميل أن
انقطع عن « موتسارت » ولم يمده بنذر من دخل هذه الأوبرا . بل لقد
بلغ من تبجح « شيكانيدر » وشدة تنكره لموتسارت أن خول لنفسه حق
الاتفاق مع مسارح المدن الألمانية الأخرى ، ويبيع هذه الأوبرا لها ، وتنازله
عن حقوقها

أحزن هذا التصرف « موتسارت » وزاد في كرده فتعامل عليه
المرض إلى درجة جعلت طبيبه يلح في نصحه بالابتعاد عن العمل بتاتا ،
ولكن أتى له ذلك ولما يفرغ من تلحين القداس ؟

اشتدت وطأة المرض على « موتسارت » حتى عجز عن القيام بتدوين
ما يصوغه من ألحان القداس فوقف إلى جانبه في محنته هذه تلميذة المخلص
« زيسماير » يعاونه ويدون لأستاذة ما يصوغه

أمل بتحقيق عذرات الوقت

كانت أغلى أمانى الوالد « موتسارت » التي ظل يتطلع إلى تحقيقها طوال حياته أن يرى ولده « فولفجانج » في وظيفة ثابتة تكفل له رغد الحياة ، وطيب العيش . وكانت أعز آمال « كونستانسه » أن ترى زوجها كذلك في وظيفة ثابتة تضمن لهما ولأولادهما حياة مطمئنة هادئة تبعدهم عن آلام الفاقة ، وشظف العيش . بل لقد كان ما يتطالم إليه « موتسارت » نفسه أن يشغل وظيفة فنية رئيسية تناسب ونبوغه في فنه ، تيسر له سبل التتاج دون صرف الجهد في الحصول على القوت

تحققت هذه الأمانى نخلت وظيفة رئيس فرقة كنيسة (سارن ستيفان) وكانت من أكبر الوظائف الموسيقية بفينا ، ذات دخل ضخم ومنزلة سامية رفيعة . ووقع اختيار المجلس البلدى على « موتسارت » ليشغل هذه الوظيفة فوجه إليه خطاب التعيين

تلقى « موتسارت » خطاب التعيين الذي يحقق في طياته أعز ما كان يرجوه ويتمناه هو وأهله ، ولكنه كان طريح الفراش تننابه حمى شديدة . ولم يمض على ذلك أسبوع كامل حتى فرغ « موتسارت » من تلحين « قداس الحداد » فاستدعى إليه طائفة من أصدقائه وتلاميذه لإلقائه .

حضر الجمع وقاموا بأداء ألحانه غناء وعزفا وكان « موتسارت » يغنى معهم
 ممسكا بيده ورقة يقرأ منها ، كما كان تلميذه « زيسمار » يعزف على البيانو .
 وبينما الجميع منشغل بالأداء خارت قوى الفنان فسقطت الورقة من يده ،
 ولم يعد في استطاعته متابعتهم



الأذن الطبيعية أذن موتسارت

كان ذلك يوم ٤ ديسمبر سنة ١٧٩١ وإذ حضرت فيه شقيقة
 « كونستانسه » للزيارة لم يبقو « موتسارت » عند رؤيتها أن يتلفظ إلا
 بعبارة واحدة ، هي قوله لها « أقيمى عندنا الليلة فهي آخر أيام حياتي »
 وعاده الطيب في هذا اليوم غير مرة ، ولكن طبه عجز عن إسماعفه فحم
 القضاء وفاضت روح « موتسارت » إلى بارئها في الساعة الأولى من
 صباح يوم ٥ ديسمبر

انتشر هذا الخبر الحزن في (فينا) فعمها الأسى ، وشملها الحزن .
وإذ كانت زوجه « كونستانسه » لا تملك وفرا من المال فقد عجزت
عن تجهيزه وإعداد ضريحه حتى عاونها في ذلك البارون « سويتن » وكان
من أخلص النبلاء المعجبين بفرن « موتسارت » ، كما قدم لها القيص
بعض المعونة .

وتحدد يوم ٦ ديسمبر لتشييع الجناز . وقد غضبت الطبيعة وكأثما
أثبت إلا أن تصب نغمتها على أهل (فينا) في يوم موت « موتسارت » الذي
عاش بينهم فلم يقدروا له موهبة ولم يعرفوا لبعثيته قدرا ، فتلبد الجو
واكفهرت السماء فحجبتها سحب قائمة ، ثم أرعدت وأبرقت وأمطرت
الأرض برذا ، وعصفت الرياح فكانت تقذف بالبرد في وجوه الناس
وكانت هذه الظواهر الطبيعية خاتمة الحلقات السيئة لموتسارت
أيضا ، حيث حالت لشدها بين الأهالي وتشيع جنازته ، فلم يقو على
مصاحبة جثمانه إلى مقره الأخير غير خمسة من أصدقائه لم يكن بينهم حتى
« شيكانيدر » ، بل كان بينهم تلميذه المخلص « زيسماير » والنبيل البارون
« سويتن » ، وحتى هؤلاء حال بينهم وبين ملازمة الجثمان حتى القبر بعد
الطريق إلى الضريح فاضطروا للعودة تاركين الجثة لسائق العرب الذي
انطلق بها في غير اكتراث

وإذن فلم يشهد أحد مواراة الجثة التراب ، ولم يشيعه في دفته غير

أمه الموسيقى التي احتضنته منذ طفولته ووهبته رعايتها طوال حياته ، وهي
اليوم تقف بجوار جثة فقيدتها الأوحـد تخاطبه :

« أـى ولدى « موتسارت » ! أنت اليوم وحدك ، وفي الغـد
سيلتف الناس حولك . لقد تنكروا لك في حياتك ، ولكنهم سيشيدون
بذكرك بعد مماتك ، لقد حرموك العيش ، وستمنحهم غدا الحياة ، ولئن
خافوا شهرتك في دنياك فعملوا على إخفاء صيتك ، فسأذيعه بعد مماتك
حتى ينقش على صفحات التاريخ الأبدى اسمك الخالد « فولفجانج
أماديوس موتسارت »

نفاذ مورتسارت

و کلمات فیه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

نوار

كان موتسارت يزاوّل التجربة الأخيرة لإخراج أوبرا « دون جوان » وكان على بطولة الرواية في ختام الفصل الأول أن تصرخ طالبة الاستغاثة ، غير أنها لم تصرخ على حالة من الفزع ترضى « موتسارت » فأعاد الموقف غير مرة ولكن بدون جدوى ، فترث الفنان هنيئة ثم طلب إعادته مرة أخرى ؟ وتسلسل خفية إلى المسرح ، حتى إذا حان وقت الاستغاثة فجأ المغنية بالهجوم عليها فصرخت مرتاعة . عندئذ قال لها : « هكذا يجب أن يكون تمثيل الدور » .

عند ما ظهرت أوبرا « دون جوان » انقسم الناس فريقين ، مادحا وقادحا . أخذ كل فريق يدعم وجهة نظره . وأخيرا اعتزم الفريقان الاحتكام إلى الموسيقى الأَعْظَم جوزيف هايدن فقال : أنا لا أستطيع أن أقضى في هذا الخلاف ، إنما أعرف شيئا واحدا ، هو أن « موتسارت » أكبر ملحن في عصرنا الحاضر

كان « موتسارت » شديد الإيمان بقدرته أستاذ « هايدن » يحل فنه

ويضعه فوق مستوى النقد ولا يسمح لأحد أن ينال منه. فحدث في أحد المجالس أن أبدى الموسيقار كوزولوخ معايب التلحين في إحدى قطع «هايدن» فقال «موتسارت» في هدوء: يا سيدي العزيز لو أتيح أن نصهر، أنا وأنت معا، لنؤلف موسيقيا واحدا، لبقيت أماننا مرحلة طويلة قبل أن نبلغ قدر «هايدن»

وفي مرة أخرى كان «موتسارت» وكوزولوخ يستمعان في حفل إلى رباعية وترية من تلاحين «هايدن» فلما وصل العزف إلى موضع معين قال كوزولوخ: لو كنت أنا الملحن لكان تلحيني لهذا الموضع غير ذلك. فأجابه «موتسارت»: صدقت، وأنا أيضا، ولماذا؟ لأن كلينا لا يوفق إلى إلهام «هايدن»

كان «موتسارت» مدعوا على مائدة القيصصر فتحلل من التقاليد والمراسيم وأخذ في الحديث دون كلفة، يمرح كعادته إذا ما كان معتدل المزاج، فلم يرق هذا لبعض كبار القواد، ورأوا لزاما أن يضموا بين يدي القيصصر أمر إخلال «موتسارت» بالتقاليد. ولكن القيصصر أجاب: «خلوا عن «موتسارت» واتركوه في هدوء! إنني أستطيع أن أصنع في كل يوم قائدا، ولكنني لا أستطيع أن أصنع موتسارت واحدا»

زار طفل موهب في الموسيقى «موتسارت» وسأله: كيف أستطيع

أن الحن؟ فقال في حزم ينبغي لك أن تنتظر حتى تتقدم سنك وتحفظ
كثيرا. فقال الصبي في دهشة: ولكنك لحنّت وأنت لم تعد الثانية عشرة
من عمرك؟ فأجابه «موتسارت» مبتسما: ولكنني لم أسأل أحدا وقتذاك
كيف الحن

تنادر جماعة من الملحنين في مجلس بمدينة ميونيخ وهم على مائدة
الطعام وإذا بأحدهم يقف متحمسا ويقول ليحيي «موتسارت» فأجابه
آخر لست في حاجة لأن تطلب الحياة لموتسارت، فإن «موتسارت»
باق على الزمن

كان «موتسارت» مرحا خفيف الروح، يميل إلى الفكاهة
والمداعبة، ومن نوادره أنه بينما كان جالسا مع «هايدن» في بيته مع جمع من
أصدقائهما ساقهم الحديث إلى التكلم عن البيانو، فقال «موتسارت»: —
إنني أراهن أستاذي (يقصد هايدن) علي ست زجاجات من
الشمبانيا، أن في استطاعتي أن أكتب له لحنا للبيانو يعجز عن توقيعه طوال
أيام حياته، ولن يسعفه فيه طول التدريب عليه

فضحك الجميع من كلام «موتسارت» إذ كان «هايدن» أكبر موسيقار
إذ ذاك، ولكن «هايدن» قبل الرهان، فاستحضر «موتسارت» ورقة كتب

عليها بعض العلامات الموسيقية ثم أعطاها لأستاذة الذي أخذها وجلس
أمام البيانو وبدأ يوقعها غاية في السهولة ، حتى إذا بلغ موضعاً معيناً من
اللحن توقف عن العزف فجاءة وقال :

— كيف يمكن أن يوقع ذلك ؟ يد في آخر البيانو من الجهة اليمنى ،
والأخرى في نهايته من الجهة اليسرى ، ثم يتطلب في نفس الوقت توقيع
نوته وسط البيانو ؟

فأجابه «موتسارت» :

— نعم يمكن ذلك ، وهذا هو موضع الرهان ، فتغل أنت عن
البيانو وسأوقعها أنا .

ترك «هايدن» البيانو ، وجلس «موتسارت» إليه ، وبدأ توقيع اللحن
حتى إذا ما بلغ هذا الموضع المقصود وقع النوته التي وسط البيانو بأنفه .
وبذلك كسب الرهان . وكان ذلك غاية في التندر والمفاكة

كلمات

— إن تلاحين موتسارت تتوشح دائماً ثوباً جديداً كلما أكثر المرء

شومان

من سمعها

— لا تعطوا الشباب في أول حلقات حياته تلاحين يتهوفن بل

غذوه وقووه بمؤلفات موتسارت فإنها بهيجة ملأى بالحياة

شومان

— لقد آثرت موتسارت بحبي دون جميع الموسيقيين ، إنه هو

روسيني

المفرد العلم

— كان موتسارت العظيم في عالم الألحان معجزة ، لا يقصر ولا

يزيد ولا يعدو الغرض الذي يقصده . وكان الجمال طبيعة في ألحانه

هرييلر

— إني أعتقد - بعد الله - في موتسارت ، ويتهوفن

فاغنر

— لا يستطيع الألمان أن يقدر موتسارت حق قدره في « الناي

الساحر » فقد يصح القول بأن الأوبرا الألمانية كانت عندما قبلها فخلقتها

فاغنر

هذه الأوبرا خلقت

— العبقريّة الموسيقية ، كالأعجاز الذي ظهر في موتسارت ، تتجلى
في أصغر حلقات العمر ، وهي دليل على أن الموسيقى تولد مع المرء كامنة
في نفسه وليست مكتسبة من الخارج ، ما لها منه غذاء قل أو كثير ولا
استفادة تكسب من خبرة الحياة

هيننا

— أعد نفسي ، في كل وقت من أكبر المعجيين بموتسارت ،
وسأظل كذلك حتى ألفظ آخر أنفاس حياتي

بينهوفس

— إيه يا موتسارت ، أيتها العبقريّة الخالدة ، كم أشععت في خلجات
نفوسنا ضياء أبديا ، وأفعمتها حياة هي النور والإسعاد :

شوبرت

— من المحقق أن شخصية كموتسارت ستظل على الدهر معجزة ليس
في الإمكان تفسيرها

ايكermann

(في حديثه مع جيتا ١٤ فبراير سنة ١٨٣١)

— إن في أعمال جلوك « وموتسارت » ما ينطق بأهلية الموسيقى
لأن تقف وحدها على قدميها دون معاونة شقيقاتها من الفنون

فاجنار

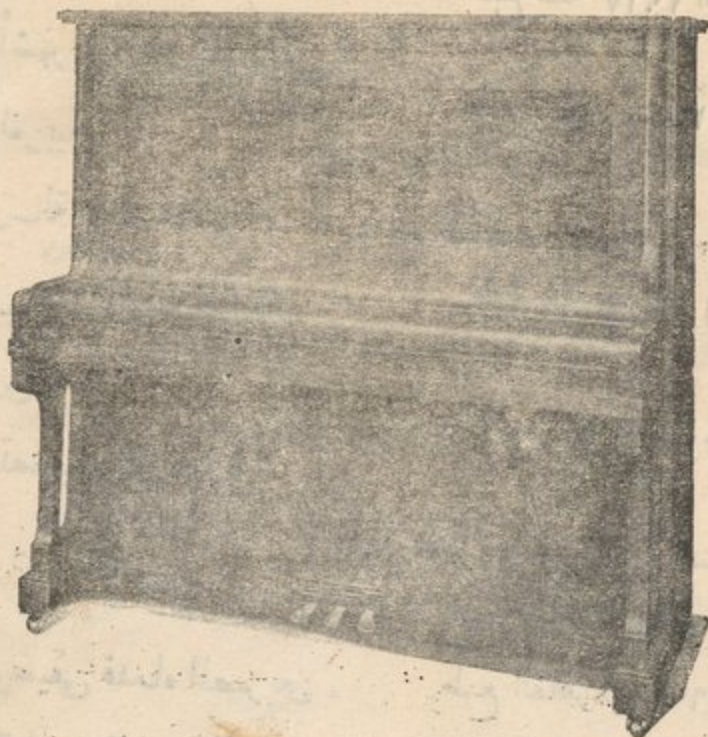
للمؤلف

- ١ - الكوميدي الحديث
(المجموعة الأولى من أجزاله المسرحية)
طبع سنة ١٩١٧ القاهرة
- ٢ - أشهر مشاهير الموسيقى
الغربية
طبع برلين سنة ١٩٢٣
- ٣ - رسالة « الكندي »
في خبر تأليف الألحان
(مع الدكتور روبرت لاخمان)
طبع لينز سنة ١٩٣١
- ٤ - ابن سينا
ونصائفه الموسيقية
طبع برلين سنة ١٩٣١
- ٥ - دراسة القانون
(مع حضرة صاحب العزة مصطفى رضا بك)
طبع القاهرة سنة ١٩٣٤
- ٦ - موسيقى قدماء المصريين
طبع القاهرة سنة ١٩٣٦
- ٧ - صور التاريخ الموسيقى
طبع مصلحة المساحة بالقاهرة سنة ١٩٣٧
- ٨ - الموسيقى النظرية
القاهرة { الطبعة الأولى سنة ١٩٣٨
الطبعة الثانية د ١٩٣٩ }
- ٩ - مونسارت
قصة الطفل المعجز
والموسيقى المبقرى
طبع القاهرة سنة ١٩٣٩

بيانو هوفمان

ذو الشهرة العالمية

HOFMANN



الوكيل الوحيد

عزيز بولس

مورد السرايات الملكية

الادارة : مضر شارع ابراهيم باشا نمرة ٧٣ تليفون ٥٦١١٤ — ٥٦١١٥

فروع

مصر : شارع المغربي نمرة ٣ تليفون ٥٦١١٦

الاسكندرية : شارع فؤاد الاول نمرة ١٨ تليفون ٢٢٣٠٥

I 14885037

B 13107690

AUC - LIBRARY



DATE DUE

MAR 13 1989

MAR 14 1989

ML
410
M59
H43
1939

main



00000019574

ML 410 M59 H43 1939/c.1

